أولادنا

الأمير و الفقير



بقلم : عادل الغضبان

عن : مارك توين

دار المعارف

الأمِيرُ وَالفقِيرُ

أولادنا

٥

الأمِيرُ وَالفقِيرُ

بقلم : عادل الغضبان

عـــن : مارك توين

الطبعة الثانية عشرة

دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.
هاتف ٥٧٧٧٠٧٧ - فاكس ٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maaref@idsc.net.eg

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.
هاتف ٥٧٧٧٠٧٧ - فاكس ٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maaref@idsc.net.eg

١
ميلاد الأمير والفقير

فى يومٍ من أيَّام الخريف ،وُلد ((بلندن)) غُلامان : أحدهما من اسْرةٍ فقيرةٍ رقيقةً الحال تُدعى ((كانتى)) ، والآخر من أسرة ((تودور)) صاحبة المجد والغنى والسُّلطان .

ولقد كانت الأسرة الفقيرة ، تَوَدّ لو لم يرزُقها الله بهذا الغلام ، حتى لايقاسي ما تقاسيه فى فقرٍ وشقاء . أمَّا أسرة تودور ، ابتهجتْ بميلاد غلامها أيما ابتهاج ، لأن ((إنجلترا)) كلها كانت تنتظر بذاهب الصبّر ، وارثٍ للعرش . فما ذاع النبأ العظيم ، حتى شَمَل الناسَ فى طول البلاد وعرْضها فرحٌ لايوصف ، فتركوا اعمالهم واندفعوا إلى الشوارع ، يغنُّون ويرقُصون ، ويقبّل بعضهم بعضاً ، وهم يبكون من الفرح والسّرور . وظلوا على هذه الحال ، بضعة أيّام وليال ، فاقيمت الزّينات ، وأطلقت السَّهام الناريّة ، توالتْ مواكب الأفراح ، ولم يكن للناس حديثٌ فى كلّ تلك الأيام إلا عن المولود الجديد ((إدورد تودور)) وليّ العهد ، فى حين لم يحفلْ بميلاد ((توم كانتى)) الشقيُّ المسكين.

٢

طفولة توم



انقضتْ عدةّ سنوات على ميلاد الغلامين ، حتى كان منتصف القرْن السادس عشر ، ولندن يومئذ مدينةٌ عظيمة ، بالنسبة إلى ذلك العهد ، لايَقِلّ عدد سكّانها عن مئة ألف . وكانت شوارعها ضيقةً ملتويةً قذِرة ، ولاسيّما الحيْ الذى وُلد فيه توم . وكان والد توم يسكن غرْفةً حقيرةً ، فى حارةٍ وسخةٍ تسمّى ((ساحة القاذورات)) ، فكان هو وزوجته يقيمان بجانب من الغرفة ، وكان توم وجَدتّه وأختاه التّوْأمان ((بات)) و((نان)) ، يقيمون بالجانب الممتدّ من العتبة ؛ فإذا

جاء الليل ، انطرح كلٌّ منهم على فراشٍ القذر ، وتغطّى بما يُشبه اللحاف.



حتى إذا طلع الصّباح ، نهضوا جميعاً وصفّوا هذه الأفرشة ، فى ركن من الأركان ، واحداً فوق واحد .

كانت بات ونان ، فتاتين طيّبتين جاهلتين ، تنضَح القَذارة من ملابسهما البالية ، وكانت أمّهما على شاكلتهما . أما الوالد والجدّة فكانا كأنهما عدوّان ، همّهما أن يَسْكَرا ، ويتحدثا بلغة الضرب والسُّبّ ، حديثاً يتجاوزهما أحياناً إلى منْ يكون فى جوارهما . ولا عجب فحـــرْفة ((جون كانتى)) كانت اللصوصية ، وحرفة أمّه التسّول ، فنشأ أولاد جون على التسوّل ، ولكنه لم يستطع أن يغرس فى نفوسهم حُبّ السرقة .

وكان فى وسط هذا الجحيم ، كاهنٌ عجوزٌ اسمه الأب ((أندريه)) ،غَضِب عليه الملك فطرده من قصره ، فعاش بين هؤلاء الأشقياء. وكثيراً ما كان ينفرد سرًّا بالأطفال ، يعلمّهم ويهذّبهم ويغرِس فيهم مكارم الأخلاق ، فتعلَّم توم ، على يد الأب أندريه ، القرأة والكتابة ، وبعض



أصول اللغة اللاتينية .

وكان من النادر أن تنقضي ليلةٌ فى ساحة القاذورات ، دونَ أن يعكر هدوْها صُراخ السكاري ، وطقطقة الكراسي تنهال على الرءوس ، ودونَ أن يلمع فى ظلامها بريق الخناجر، وأن تُراق فى جوانبها الدّماء.

فعاش الصبى توم فى هذا الجو ، وهو يظنّ أنّ الحياة كلها لاتختلف عن الحياة التى ألِفهَا، وكان إذا جاء فى آخر النهار إلى أبيه ، خالى اليَدَيْن ، ضربهُ أبوه وجدته ضرباً مبرّحاً ، وفَرَضا عليه المبيت بلا طعام ، فلا ينقذه من الجوع سوى أمه ، إذ تزحف إليه فى جنح الليل ، وتعطيه كسرةً من الخبز يسدّ بها جوعه ، ولما ضيّقت الحكومة الخناق على المتسوّلين ، أصبح توم يكتفى من

التسوّل . بما ينجيه من غضب أبيه وجدته ، وصار يتردّد – ما أمكنه– على الكاهن ، يسمع منه القصص الشائقة العجيبة ، عن الملوك والأمراء والأبطال ، وأعمال المَرَدَة والسَّحَرة ، فامتلأ ذهنْه بهّه الأقاصيص الحُلْوة ، وشُغف بها ، فإن رَقد فى فراشه مهشّم الأوصال من ألم الضرب والجوع ، وجَدَ عزاءه فى أن يطلق لخياله العنان ، فينقله إلى حياة الآمراء فى القصور . ولقد فاتحَ يوماً رفقاءه فى ساحة القاذورات ، برَغبته فى أن يرى أميراً حقيقياً ، فازدروْه ، فآلى على نفسه ألاّيحدث أحداً عن رغباته وأحلامه .

على أنّه لم ينقطعْ عن الاختلاف إلى الأب أندريه . والإصغاء إلى تعاليمه ، وإلى شروحه على الكتب التى كان يطالعها عنده ، فتفتَّحتْ نفسه إلى حبّ كلّ جميل ، وأخذَه الحياء من قذارته وثيابه البالية ، وتمنى أن يكون ولداً نظيفاً حسنَ الهنْدام ، فأدّتْ به هذه الرّغبة إلى أن يصطّنع الإمارة قولا وإشارةً ، فأدهش عارفيه ، وقضَوْا بالزّعامة عليهم ، ونقلوا أخباره إلى أهليهم ، فطارتْ له فى الحىّ سُمْعَةٌ طيّبة إلا فى أسرته .

وانتهى به الأمر ، بعد زمن وجيز ، إلى أن ينشىء له بلاطاً ، ويتَّخذ من رفقائه حاشية ، فوزّع عليهم المناصب ، فكان منهم الحاجب ، والأمين ، ورئيس الديوان ، والوصيف ، وناظر الخاصة ، يصرّفون شئوون مملكته الوهميّة ، وينفذون أوامره التى يصدرها للجيش والبحرية ،

وممتلكات ما وراء البحار ، فإذا إنفضّ مجلس البلاط ، ذهب يتسوّل خوفًا من عقاب أبيه الصّارم ، ولكنه – مع ذلك – لم يفقد الأمل فى أن تقع عينه يوماً على أميرٍ من لحمٍ ودم.



٣
لقاء الأمير

نـهَضَ توم ذاتَ صباح جائعاً خاوى البطن ، فنَزَل يجول فى الشوارع على غير هدًى ، شارد اللبّ عما يدور حوله ، ممتلىء الذهن بالرُّؤَى العظيمة ، التى حَلمَ بها فى الليلة الماضية . واستمرّ فى سيرة مشغوفاً بخَياله ، حتى وَصَل إلى خارج المدينة ، ولم يكن قد عرَف ذلك المكان من قَبْلُ ، فرأى شارعاً كبيراً ، تقوم على أحدجانبيه منازلُ كثيرةٌ متراصّة ، وتواجهها فى الجانب الآخر ، بناياتٌ متفرّقة ، هى قصور الأغنياء النبلاء ، تُحيط بها الحدائق ، وتمتدُ إلى نهر التاميز ، فأخذ يطوف بها قصراً قصراً ، حتى انتهى به المطاف إلى قصر ((وستمنستر)) فسرّح فيه الطَّرْف مدهوشاً ، متعجباً من سُورِة العظيم ، وأبراجه الشاهقة ، وبابه الحجرىّ الضّخْم ، وحواجزه المذهبة ، وقد رَبضَتْ فوقها أسودٌ من الصَّوّان ، فأيقن توم أنه قصر الملك ، فاختلج قلبه ، وعلَّل نفسه برؤية أمير حقيقي فقال :

ــ ((آه لو تُحقق السماء رجائى !))

رأى توم على جانبى ذلك الباب الضّخم ، جنديًّا عملاقاً شاكى السلاح ، ولاحظ أنّ الناس ، إذا مرُّوا بالقصر ، مرّوا بعيداً منه ، وبدت عليهم الهَيبْة والإجلال ، ثم سرّه أن يشاهد عرباتٍ فخْمة تدخل إلى القصر وتخرج منه ، وقد استوى على صدورها رجالٌ عظماء، وسيداتٌ جميلات ، ووقف على جوانبها خدمٌ فى حُلل مزر كشة . فتقدْم توم الصغير من الحارسين ، وقلبه يخفق من الخوف والأمل ، وكاد فجأة يطير من الفرح ، لما تطلَّع إلى ساحة القصر من خلال الحواجز ، فرأى فتى فى مثل عمره ، يختال فى ثياب حريرية مرصّعة بالجواهر ، ويتدلى على أحد جانبيه سيف صغير ، وكان على رأسه ، قبعةٌ عاليةٌ مزَينّةٌ بالرِّيش ، وفى قدميه حذاء أحمر الكعب ، ورأى حواليه جماعةً من الرجال ، فلم يشكّ فى أنهم أتباعه الأمناء ، فوثق توم كل الوثوق بأن حُلمه قد تحقق ، وبأنه يشاهد أميراً من الأمراء ، فودّ لو يقترب منه ليتفرّس فيه مليًّا ، وما شَعَر إلا ووجهه مستندٌ إلى حاجز القصر ، ينظرُ إلى الأمير بغِبْطةٍ وإعجاب ، غير أنه لم ينعم بذلك سوى بضع ثوان ، فقد انقضّ عليه أحد الحرّاس ، وانتزعه من مكانه ، ورمى به بعيداً وهو يصيح به قائلا:

-((اذهب إلى الجحيم أيها الأحمق !))

فسقط توم فى وسط جمهور من الرعاع ، أخذوا يضحكون منه ويزدرونه ، ولكنّ الأمير كان قد رأى غِلْظة الحارس ، فاندفع إلى

حاجر القصر ، ووجهه محمرّ من الغضب ، وطفق يؤنّب الحارس ويقول :



- ((ما هذه الفظاظة والقَوْة؟ ! افتحوا الباب وأدخلوا إلىّ هذا الفتى ...)) وسَرتْ فى الجمهور رعشةٌ لم يُرَ بعدها إلا قبعاتٌ تخلع ، وأيدٍ تصفّق ، وأصواتٌ تبلغ عنان السماء وهى تهتِف : ((عاش ولىّ العهد)) . وفى الحال أدّى الحرّاس التحية العسكرية ، ثم فتحوا الباب ، وفَسحوا فى الطريق للفتى المسكين ، فاستقبله الأمير أحسنَ استقبال ، ومدّ له يده مصافحاً وقال :

- ((يلوحُ عليك أنك جائعٌ متعبٌ ، لقد أساءوا إليك !تعالَ معى .))

وهَمَّ بعض أتباع الأمير أن يتدخلوا فى الأمر ، فأشار إليهم الأمير إشارةً كلها زهوٌ وسلطان ، فوقفوا فى أمكنتهم كأنهم سُمِّروا فيها ، وصَحِبَ الأمير ضيفه إلى مكتبه ، وأمر له بطعام ، ثم صرف الأمير الخدم ، حتى لا يضيق بهم الفتى ، وجلس إلى جانبه يشجعه على الأكل ، ويحدّثه فقال له :

-((ماسمك ياعزيزى ؟)) فقال توم : -((توم كانتى ، خادمك المطيع يامولاى .)) فقال الأمير : ((ما أغربَ الاسم ! وأين تقطن ؟)) فقال توم : - ((فى المدينة يامولاى ! فى حارة من ساحة القاذورات .)) فقال الأمير : - ((فى ساحة القاذورات ؟ ! ما أغربَ هذا الاسم أيضاً ! ألك أهل ؟)) فقال توم : - نعم يامولاى ، لى أبٌ وأمٌ ، وجدّةٌ أيضاً ! ولكنى لا أحبها ، وليسامحنى الله فى كلامى هذا ، ولى كذلك شقيقتان توأمان : بات ونان)) فقال الأمير :

- يخيل إلى أن جدّتك لا تُحسن معاملتك .)) فقال توم :

- هى لاتحسن معاملة أحد يامولاى .)) فقال الأمير :

- ((هل تضربك ؟)) فقال توم:

- ((إن يدها يامولاى لاتقف عن الضرب ، إلا إذا كانت نائمةً أو سكرى .))

فلمعت عين الأمير ببارقةٍ من الغضب ثم قال:

-((أتضربك وأنت على ما أنت عليه من النحول والضعْف ؟

اسمع : قبل أن يهبط المساء ، ستكون جدتّك نزيلة السجن . إن أبى الملك ...)) وقطع الأمير حديثه وسأل الفتى :

- ((هل يحسن أبوك معاملتك ؟)) فقال توم :

- ((إنه مثل جدّتى يامولاى ...)) فقال الأمير :

- ((أبى كذلك رجلٌ جافى الطبَّع ، ولكنه لايضربنى . وأمك ؟)) فقال توم :

- ((إنها طيّبة القلب يامولاى ، وكذلك شقيقتاى بات ونان .)) فقال الأمير :

- ((كم عمرها ؟)) فقال توم :

_ ((خمسة عشر عاماً يامولاى)) . فقال الأمير .

- ((إن شقيقتى "ألبصابات" عمرها أربعة عشر عاماً ، وابنةّ عمى " جان غراى" الجميلة اللطيفة هى من عمرى ، وشقيقتى " مارى " المقطبة العابسة . . . ولكن قل لى : هل تمنع شقيقتاك وصائفها من الابتسام ؟)) فقال توم :

- ((وهل تظنّ يامولاى أن لشيقتىّ وصائف ؟)) فقال الأمير :

- ((ولمَ لا ؟ فمن إذن يخلع عنهما الملابس عند النوم ، ويساعدهما على ارتدائهاَ فى الصَّباح ؟)) فقال توم :

– ((لا أحد يامولاى ، فضلا عن أنه ليس لهنّ غير ثوب واحد)) .
فقال الأمير :
– ((ثوب واحد فقط ؟!)) فقال توم :
– ((نعم يامولاى ، وهذا حَسبْهما ، فالإنسان ليس له إلا جسدٌ واحد!)) . فقال الأمير :
– ياللغرابة ! عفواً ياأخى ، فما قصدت أن أسخر منك ، فطبْ نفساً ، إن شقيقتيك سيكون لهما ثيابٌ وافرةٌ ووصائف . . . لا . . . .لا لاتشكرنى... إنّ حديثَك حسنٌ ، ومظهرك الصريح يعجبنى ، هل أنت متعلّم ؟)) فقال توم :
– ((لست أدرى ، وإنما الذى أدريه أنّ الأب أندريه ، علّمنى القراءة فى كتبه)) . فقال الأمير :
– ((هل تعرف اللاتينية ؟)) فقال توم :
– ((قليلا جداً)) ، فقال الأمير :
– ((ولكن حدّثنى عن ساحة القاذورات ، هل تلهو فيها وتلعب ؟)) فقال توم :
– ((نعم يامولاى ، إلا أذا كنتُ جَوعان . ثم إن فيها مسرحاً وقردَة جميلة . . . جميلة . . . فى ملابسها الملوّنة . أما المسرح فعظيمٌ جدًّا ، فالرّوايات فيه كلها صراخٌ وقِتال . والممثّلون كلهم يموتون فى نهاية الرواية . آه ، ما أجمل ذلك التمثيل !)) فقال الأمير :



– ((وماذا أيضاً ؟)) فقال توم :

– ((نقضي الوقت أحياناً ، نحن صبية ساحة القاذورات ، نتصارع أو نتبارز بالعِصِيّ .))

فلمعت عين الأمير وقال :

– ((هذا يعجبنى ! . . . امض فى حديثك .)) فقال توم :

– ((نتسابق في الجرى لنرى من يكون السابق .)) فقال الأمير :

– ((وهذا أيضاً يعجبنى . . . امض فى حديثك .)) فقال توم :

– ((وفى أيام الصيّف يامولاى ، ننزل النهرَ ونسبح ، ويحاول كل منا أن يُغرقَ رفيقه ، أو يشلّه عن الحركة بأنْ يصبّ دفقاتٍ من الماء عليه ، فنلعب ، ونصرُخ ، ونغطِس فى الماء ، ونتدافع بالأيدى و . . .)) فقال الأمير :

– ((آه ! إنى أنزل راضياً عن مملكة أبى ، لو أتيح لى التّمتّع بكلّ هذا مرّةً واحدة . . . امض فى حديثك امض . . .)) فقال توم :

– ((ونرقُص ، ونغنّى ، ونلعب فى الرمل ، وندفن أنفسَنا فيه ، ونتراشق أحياناً بأكر من الطين . آه ! ما ألذ اللعبَ بالطين ! . . . عفواً يامولاى !)) فقال الأمير :

– ((لا بأس عليك ، إنك أثرت فى نفسى رغبةً ملحة . . . ليتنى أستطيع أن أرتدى ثياباً مثل ثيابك ، وأمشي حافياً ، وألعب ولو مرّةً واحدة . . . وليأخذوا منى التاج بعد ذلك .)) فقال توم :

– ((وليتنى أستطيع أنا أن أرتدى ثياباً مثل ثيابك الفاخرة ، ولو مرَّةً واحدة فى الحياة")) فقال الأمير :

– ((أتريد ذلك ؟ فَلْيَكُن ، اخْلع عنك اسمالك ، والبس هذه الثياب الجميلة ياعزيزى . . . إنّ سعادة كلّ منا ستكون قصيرة ، هيّا ، هيّا ! قبل أن نفاجأ بزورة أحدٍ من القصر !))

وما هى إلا لحظات ، حتى كان الأمير مرتدياً ثياب توم الممزّقة وحتى كان توم هذا يختال بثياب الأمير ، فَمَشيا فى الغرفةِ جنباً إلى جَنْب ، ووقفا عنج إحدى المرايا ، يُطيلان النظر فيها صامتين ذاهلين ، فقطع الأمير ذلك الصّمت وقال :

– ((مارأيك ياعزيزى ؟)) فقال توم :

– ((أعفِنِى يامولاى من الردّ ، فما كان لفتًى حقير مثلى أن يُبْدِىَ رأيه .)) فقال الأمير :

– ((إذن أبديه أنا : إنك لتشبهنى كلّ الشّبه ، فشَعرى شَعرك ، وعيناى عيناك ، وصوتى صوتك ، وقامتى قامتك ، وحركاتى حركاتك ، حتى قسَمات وجهى هى قسماتك ، فلو كنا عاريين من الملابس ، ما استطاع أحدٌ أن يقول من منا توم كانتى ، ومن منا ولىّ عهد إنجلترا ، وإنى لأشعر الآن ، وانا أليس ثيابك ، بما كان من وطأة ذلك الحارس الوحش عليك . . . ولكن . . . مابالُ يدك مخدوشة ؟ . . .)) فقال توم :

– ((خَدشاً صغيراً يامولاى ؛ وكيفما كان الأمر ، فمولاى لايجهل أنّ الحارس ، إذ دفعنى عن باب القصر ، إنما ظنّ أنه يؤدّى واجبه)) .

فضرب الأمير أرضَ الغرفة بقدمه العاريه وقال :

– ((صه ! او أن الملك . . . اسمع ياعزيزى ، لاتتحرك من مكانك حتى أعود)) . ومضى إلى مِنضَدَة فى الغرفة ، وأخذ منها شيئاً ، أودعه مكاناً أميناً ، ثم خرج من باب متوار ، واجتاز ساحة القصر ، وهو فى تلك الملابس الرثة ، ووجهه محتقن ، وعيناه تقدَحان الشرر ، فوصل إلى الباب الكبير ، وأمسك بقضبانه يريد تحطيمها ، وصاح :

– ((افتح الباب !))

فنظر إليه الحارس فى حِقْدٍ ، ظنًّا منه الفتى المسكين ، وفتح له الباب ، وكال له صفعةً دحرجته عدّة أمتار ، وقال له :

– خذ جزاء التأنيب الذى لقيتُهُ من مولاى الأمير بسببك !))

فَنهض الأمير وهو ملوّثٌ بالوحل ، واقترب من الحارس ، وقال له فى سُخْط وغضب . والجمهور يهزأ به ويضحك :

– ((أنا ولى العهد ، وسوف تُشْنَق لاعتدائك علىّ !))

فأدّى الحارس التحيه العسكرية ، وقال هازئاً متهكماً :

– ((السلام على مولاى ولىّ العهد)) .

ثم أردف مغضباً :

– ((ابتعد من هنا أيها الشَّحاّذ القذر!))



فصفق الرّعاع الذين كانوا هناك ، والتفوا حول الأمير ، يدفعونه بأيديهم صائحين : افسَحوا فى الطريق لصاحب السموّ الملكىّ ، افسحوا فى الطريق لولىّ العهد !



٤

بدء عذاب الأمير

ظلّ هؤلاء الرعّاع يدفعون الأمير ، ويسومونه العذاب والاضطهاد ، وهو يصبح في وجوهم أنه وليّ العهد ، حتى ملّ وسكت ، فسكتوا عنه وتركوه وشأنه ، ومضَوْا يبحثون عن فريسة أخرى يلهُون بها . نظر الأمير حوله ، فأدرك أنه في قلب المدينة ، فمشى على غير هُدى ، حتى لاحت له كنيسةٌ كبيرة ، يعمل في جانب من جوانبها طائفةٌ من العمال ، فعرف أنها كنيسة رهبان



المدارس ، وذكر أن أباه قد أمر أن تُحَوَّل إلى ملجأ للأيتام ، فشعر بغبطَةٍ وارتياح ، ولم يشكّ في أن هؤلاء الأيتام ، الذين أحسن أبوه



إليهم ، سيُحسِنون استقباله ، فما كاد يصِلُ إليهم حتى أحاطوا به فقال لهم :

– ((أبْلِغُوا يا أصحابى رئيسَ هذا الملجأ ، أنّ إدورد ولىّ العهد يرغَب فى مقابلته)) .

فأغرق الصبية فى الضَّحك ، وتقدم أوقحهم وقال :

– ((ألم يَرَ الأميرُ إلا شحاذاً مثلك يوفده رسولا ؟)) .

فاستولى على الأمير غضبٌ شديد ، ومدّ يدخ إلى جنبه يريد أن يستلّ سيفه ، فما وجد شيئاً ، فعاد الصبيه إلى الضّحك ، وقال أحدهم :

– ((أرأيتم ؟ إنه يريد أن يُجَرِّد سيفه ، كأنّه الأمير نفسه !)) .

فصفق الصبية ضاحكين ، فاغتمّ الأمير وقال لهم بلهجة الآمر :

- ((أنا الأمير ولىّ العهد ، وليس من اللائق أن تستقبلوا ابن ولىّ نعمتكم بمثل هذا الاستقبال !))

فصاح الصبىّ الوقح فى رفقائه :

- ((ماذا تنتظرون ؟ ألا تعرفون أيها الأوغاد كيف تُستقبَل أبناء الملوك ؟ خُرُّوا جميعاً ساجدين ، وحيُّوا صاحب السموّ وأسماله الملَكية !)) . فركعوا كلهم إزاءه فى احترام ساخر ، فلم يمْلك الأمير نفسه عن أن يَرْكُل بقدمه أقربهم إليه ، ففقَد الصِّبية صوابهم ، وهجموا على المير يُشبعونه ضرباً ، ثم أطلقوا كلابَ الدّير عليه ، فأوسعته عضاًّ وخَدْشاً ، فلاذ بالفِرار من وجه هؤلاء الشياطين وكلابهم.

وتابع سَيرهُ وهو لا يعلم إلى أين يسير ، وتذكر فجأة اسم ساحة القاذورات ، فقال فى نفسه : ((إذا وصلتُ إليها قبل أن يَنْهكنى التعب ، فخلاصى محقّق ، لأن أسرة توم ستعرف أنى لست ابنها ، وأنى الأمير الحقيقىّ ، ثم تذكرّ ما لقيه من صبية الملْجأ فقال :

- ((إذا اعتليتُ العرش ، فسوف أوفّرلهم مسكنًا وطعاماً ، وأهذّ بهم بالعلم ، فما نَفْعُ الإنسان ، إذا امتلأ بطنه وخلا عقله وقلبه ؟ إنّ التهذيب يُلين القلب ، ويعوّده كَرَم الخُلُق والإحسان !))

وبدأ الظلام ينتشر فى المدينة ، وهبت الرياح الباردة ، وانهمر المطر ، وإدورد تودور ولىّ عهد إنجلترا ، يرود الأزقّة والحارات ، ولا



تقع عينه إلا رعاعٍ وأوباشٍ ، وبيوتٍ حقيرةٍ جثَمَ فيها الفقر ، واستقرّت بها الرذيلة .

فلم يشعر الفتى الحيران ، إلا ويدٌ تمسك بخناقه ورجلٌ سكران يصيح فيه قائلا :

– ((ألا تزال في الشوارع حتى هذه الساعة ؟ إنى لأقسم إنك لم تجمع شيئاً مذكوراً ، فوالله لأحطمنّ عظامك أيها البليد الخامل ، وإلا فما أنا جون كانتى !))

فتخلص الأمير من قبضة الرجل وصاح فيه :

– ((آه ، أنت أبوه ، شكراً لك ياربّ ، هيّا بنا نذهب إليه فتعود

به .)) فقال الرجل :

– ((أيوة ؟ إنى أبوك أيها البليد ، وسترى ذلك بعد قليل .)) فقال الأمير :

– ((لا تمزحْ ياهذا ، فما عاد بى قوّة ولا جَلد ، اذهب بى إلى الملك ، يكافئك مكافأة لم تحلم بها قطّ ، صدّقنى أيها الرجل الطيّب ، صدّقنى فإنى لا أكذب ، انتشلنى من عذابى ، أنا المير ولىّ العهد . .)) فحدّق فيه الرجل مدهوشاً ، ثم هزّ رأسه وقال :

– ((لقد جُنّ الولد !))

ثم ضحك ضحكة شنعاء ، وتلفظ بسلسلة من الشتائم ، ختمها قائلا :

– ((سواء جُنِنتَ أم لم تجنّ ، فأنا وجدّتك كفيلان بشفائك .))

ثم أمسك بتلابيبه ، فمانع الفتى ، فما كان منه إلا أن حمله على ظهره ، وسار به إلى ساحة القاذورات.



٥
توم فى القصر

بقى توم وحده فى كتب الأمير ، فشرع يَذرَعُ الغرفة جيئة وذهاباً ، عالى الرأس ، منتفخ الوجه ، يُلقى من حين إلى آخر ، نظرةً إلى المرآة فى عثجْب وخُيَلاء ، ثم وقف فجأة ، وجرد سيفه ، وأمسكه بقبضتيه ، ورفعه إلى فمه فقبل صفحته ، كما يفعل الضابط الذى يريد أن يسلّم سلاحه ، وودّ لو رآه رفقاء ساحة القاذورات ، وشاهدوا ما هو فيه من مجد ، وما عليه من حلل فاخرة .

وانقضى نصف ساعة والأمير لم يعد ، فشعر توم برهبة الوحدة ، وتسرّب إليه القلق والخوف ، وخَشِي أن يفاجئه أحدٌ ، وهو فى كتب الأمير لابساً ملابسه ، فلايكون نصيبه غير الشّنق ، قبل أن تنجلى الحقيقة ، ففتح الباب بخفة وهو بادى الاضطراب ، لعله يرى الأمير فيقضى على مخاوفه ويحميه ، وإذا بستة حجاب فى ثياب مزركشه ، كانها حلّة فراشة ، ينهضون وينحون إلى الأرض ، فعاد وأقفل الباب ، وتوهّم أنهم يسخرون منه ، فنَدم أشد الندم ، ولام نفسه على أن عرّضها للخطر . وماهى إلادقائق ، قضاها متصنّتاً لكلّ حركة ، حتى رأى الباب يفتح ،



ويدخل منه حاجبٌ وهو يصيح :

– ((الأميرة جان غراى))

دخلت عند ذلك إلى الغرفة ، فتاةٌ جميلةٌ رشيقةٌ ، نظرت إليه قليلا وقالت فى صوت يفيض بالقلق : – ((هل أنت مريضٌ ياصاحب السموّ ؟))

فكاد توم يُغْمَى عليه ، ولكنه استجمع قواه وتمتم قائلا :

– ((رحماك يامولاتى ، ما أنا صاحب السموّ ، وإنما أنا توم كانتى ، من ساحة القاذورات ، فبالله عليك إلاناديت الأمير ، وطلبت منه أن يطلق سراحى)) .

ثم ركع أمامها ، وهو يتوسل إليها أن تجيبه إلى طلبه ، فصاحت الأميرة فى دهشة واستغراب :

– ((أتركعُ أيها الأمير ؟ وأمامى أنا ؟ !))

ولم تزد على حرفاً ، وانصرف متألمة . فارتمى توم على أحد المقاعد يائساً خائفاً ، يترقب أن يفتح الباب بين لحظة وأخرى ، ويدخل منه الجلاّد فيذهب به إلى المشنقة .

وبينما كان توم على هذه الحال ، كانت الأنباء الخطيرة تجوب أنحاء القصر ، فى همس ووشوشةٍ ، على عادة القصور ، وتتنقّل من فم إلى فم ، بين الحجّاب ، والحرس ، والوصائف ، والأشراف ، والنبيلات ، فكانوا جميعاً يتهامسون أن الأمير قد فقَد عقله ، وأصيب بالجنون .

وبينما كان الرجال والنساء فى القصر ، ولا حديث لهم إلا جنون الأمير ، إذا بمناد يطوف بأبهاء القصر ، وأروقته وساحاته ، يعلن للملأ أمراً صدر من الملك يقول :

((باسم حضرة صاحب الجلالة الملك !

((يحظّر على كل مَنْ بالقصر ، أن يعير أذناً صاغية للإشاعات الكاذبة ، التى تروج فيه ، ويحظّر عليهم أيضاً أن يتحدّثوا فيها ، أو ينقلوها إلى خارج القصر ، ومن يخالف هذا الأمر فجزاؤه القتل .))

فسكت القوم فى الحال عن الخوض فى هذه الشائعات ،وبعد قليل ، سرى فى القصر ، من غرفة إلى غرفةٍ ، ومن رواقٍ إلى رواق ، صوتٌ واحدٌ يقول :

– ((هاهو ذا الأمير !))

فاصطفّ الناس على الجانبين يفسَحون فى الطريق للأمير ، ويحيُّونه

بخشوع وإجلال . ولم يكن ذلك الأمير غير توم المسكين ، تحفّ به كوكبةٌ من الأشراف والأتباع ، ووراءه نفرٌ من أطباء القصر والحشم .

وبعد دقائق قليلة ، وجد توم نفسه فى غرفه واسعه ، ومن حوله أفراد الحاشية ، وعلى مسافة قريبة منه رجلٌ ضخْم الهيكل ، متجهّم الوجه ، تطفِر القوة من عينيه ، وكان مستلقيا على مقعد ، وإحدى رجليه ملفوفة بالأربطة ، ومرتكزة إلى وسادة كبيرة ، ولم يكن هذا الرجل سوى هنرى الثامن ، الملك العنيف القاسى ، غير أنه بدأ الحديث متلطفاً فقال :

- ((كيف فكّرتَ ياولدى الحبيب فى هذا المزاح ؟ أما خطر لك أنه يؤذى أباك الذى يحبّك ؟))

فلما سمع توم كلمة ((أباك)) خارت قواه ، ولكنه تجلد وقال : - ((الملك ! أنت الملك ! واحسرتاه عليك ياتوم !))

فدهش الملك من هذا الكلام ، وأخذ يجيل نظره فى الحاضرين ، حتى انتهى إلى توم فقال فى يأس وقنوط :

- ((ظننتُ النبأ مبالغاً فيه ، وأخشى أن يكون صحيحاً !)) ثم تنهّد تنهّداً عميقاً ، وتابع حديثه بصوت ناعم رقيق ، وقال :

- ((تعال إلى أبيك ياولدى ، أنت مريض !))

فاقترب توم من الملك ، وهو يرتجف ، فضمّه الملك إلى صدره فى عَطْفٍ وحَنان ، وقال له :

- ((ألا تعرف أباك ياولدى ؟ ! لا تحطّمْ قلبى الشيخ ، قل إنك

تعرفنى ! قل كلمةً تبدّد بها مخاوفى وآلامى)) . فقال توم :

– ((نعم إنك صاحب الجلالة الملك ، حفظه الله !)) فقال الملك :

– ((الحمد لله ، هدئ من روعك ، ولاتخش بأساً ، فكلنا هنا نحبك ! لقد اضمحلّ حُلمك المزعج ، أليس كذلك ؟ وعرفتَ نفسك الآن فما عدتَ ، كما قيل لى ، تتسمى بذلك الاسم الغريب الذى اخترعته . . .))

فقال توم :

– ((أرجو من مولاى صاحب الجلالة ، أن يعتقد أنى لم أقل إلا الحقيقة ، فأنا عبد حقير ، من أحقر رعاياه وأفقرهم ، وليس وجودى هنا إلا محض اتفاق ، لم أقصد به سوءاً . إنى لا أزال فى طَوْر الحداثة ، تنقذنى من المشنقة)) . فقال الملك :

– ((أن تفقد شبابك ؟ ! خفّف من اضطرابك ياحبيبى ، فإنك لن تموت !)) .

فخرّ توم راكعاً وصاح مسروراً :

– ((جزاك الله خيراً يامولاى ، وحفظك ذخراً للوطن !))

ونهض توم ، وأدار فى الحاضرين وجهاً متألقاً بالفرح ، وصاح فى الحاجبَين الواقفين عن يمينه ويساره :

– ((أسمعتما ؟ إنى لن أموت ! لقد أمر الملك بذلك)) .

والتفت إلى الملك فى حياء وخجل وقال :



– ((أتسمح لى يامولاى بالانصراف ؟)) فقال الملك :

– ((إذا أحببتَ ، ولكن إلى أين أنت ذاهب ؟ ولماذا لا تبقى معى !)) فأحنى توم رأسه وقال فى خشوع :

– ((لما سمعتُ كلام مولاى الملك ، ظننتُ أنى حرٌّ طليق ، فأردتُ أن أعود إلى حيثُ وُلدتُ ، إلى ساحة القاذورات ، حيث تقطُن أمى وشقيقتاى ، فلستُ من الأمراء ، ولا من أبناء القصور ، فأستحلفك بالله يا مولاى إلاتركتنى أنصرف !))

فلزم الملك الصمت ، وبدتْ على وجهه لوائح ألم عميق ، فقال فى شئ من الأمل ، موجهاً كلامه إلى مَنْ حوله :

– ((لعلّ عقله لم يختلط إلا فى هذه المسألة ، فلنمتحن قواه العقلية فى مسائل أخرى ، ثم طرح على توم سؤالا باللاتينية ، فردّ عليه توم باللغة نفسها رداً وسطاً ، فتهلل وجه الملك سروراً وتهللت معه وجوه الأشراف والأطباء فقال الملك :

– ((كان فى استطاعته أن يكون أحسن جواباً ، وهذا يدُلّ على أن ذهنه مريض)) ، ثم التفت إلى أحد الأطباء قائلا :

– ((مارأيك ياحضرة الطبيب ؟))

فانحنى الطبيب الذى وجه إليه السؤال وقال :

– ((رأيى ياصاحب الجلالة أنكم أصبتم المرمى .)) فنزل هذا الكلام برداً وسلاماً على قلب الملك فقال :

((أصغوا إلى كلكم ، لنستمرّ فى الامتحان .))

وطرح على توم سؤالا بالفرنسية فلم يجب ، ولما رأى أنظار الحاضرين شاخصةً إليه قال فى خجل :

– ((عفواً يامولاى ، فإنى لا أعرف هذه اللغة .))

فسقط الملك على مقعده ، وسارع الأطباء إليه يسعفونه ، فدفعهم عنه وقال :

– ((لا تخافوا فما بى شىء ، أسندونى قليلا ! . . . كفى . تعال ياولدى ، أسندر رأسك العليل إلى صدر أبيك وهدئ روعك . . . إنّ مرضك سحابةٌ سوف تنقشع ، فلا تخف .))

ثم التفت إلى الحاضرين وقد اربدّ وجهه وقال :

_ ((أصغوا إلى جميعكم ، إن ولدى أصيب بالخبَل ، ولكنه خبلٌ عارض ، سببه كثرة انحباسه على الدرس ، فى المدّة الأخيرة ، فلا دَرْس ولا كتب بعد اليوم . . . أشغلوا وقته بالألعاب الرياضية ، ووفِّروا له أنواع التسلية ، كى يسترد صحته .))

واستوى فى جلسته وقال فى حزم وشدّة :

– ((إنّ ابنى مخبول ، ولكنه ابنى ووارث عرش إنجلترا ، وسيتبوأ العرش مجنوناً كان أم سليم العقل . . . اسمعو قولى وتبينوه : من يتحدّث عن مرضه ، يجرم فى حقّ النظام وسلامة الدولة ، ويكون مصيره القتل شنقاً . . . إلىّ بكأسٍ من الماء . . . إنّ جوفى يلتهب . . . حسناً . . . خذوا

الكأس . . . أسندونى قليلا . . . إنه مجنون ، ولكنه مع ذلك ولىّ العهد . . . أنا الملك أقول لكم هذا . . . ففى هذا الصباح يحتفل بمباشرة الأميرة سلطته . . . " لورد هرتفولد " ! . . نفذ أوامرى . . .))فانبرى من الجمع رجلٌ طأطأ رأسه أمام الملك قائلا :

– ((تعلم يامولاى ، أنّ مارشال الدولة ، وهو من تفرض التقاليد أن يتولى هذه المهمة ، معتقلٌ بتهمة الخيانة العظمى ، فلا يصحً . . .)) فقاطعه الملك قائلا :

– ((لا أريد أن أسمع ذكر هذا الرجل . . . ولكن أيظلّ الأمير مجرّداً من سلطته ، لأنه ليس فى الدولة مارشال غير خائن يرفعها إليه ؟ لا . . لا . . . اذهب إلى البرلمان ، وقل لأعضائه إنى أريد رَأس المارشال قبل صباح غد ، وإلا كانوا هم المسئولين .)) فنهض اللورد هرتفولد ، وعاد إلى مكانه وهو يقول :

– ((سمعاً وطاعةً يامولاى .)) فبدت على قسَمَات الملك أمارات الرضا ، والتفت إلى توم قائلا :

– ((ألاتزال خائفاً ياحبيبى ؟ تعال قَبِّلْ أباك الذى يحبك .)) فقال توم :

– ((إنك طيب القلب يامولاى ، وأنا لا أستحق نعمتك . . . إنْ قلبى لينفطر من الألم ، كلما فكرتُ فى ذاك الذى سوف يموت و . . .))

فقاطعه الملك وقال :

– ((آه يسرْني أن أرى قلبك لم يسمه الداء الذى مسّ عقلك . . . ولكن اعلم أن هذا المارشال قد تآمر عليك ، فقرٌ عيناً ، فيقوم مارشال آخر بالاحتفال . . . لا تشغل فكرك بهذه المسألة .)) فقال توم:

– ((ألست أنا السبب فى موته ؟ !)) فقال الملك :

– ((لاتفكر فيه فهو غير جدير بأن يخطر اسمه ببالك . . تعال قبِّلنى ، ثم اذهب إلى ألعابك وملاهيك . . . إنى مريضٌ ومحتاجٌ إلى الراحة . اصحب خالك اللورد هرتفولد ، وعد إلىّ متى دَعوْتك . .))

فغادر توم غرفة الملك ، وقلبه حزين ، إذ لم يعدْ له أمل فى الانطلاق من هذا القصر ، وأحسّ أنه سجينٌ فى قفصٍ من ذهب . . .

٦

توم يتدرب على الإِمارة

ذهب اللورد هرتفولد بالفتى توم إلى غرفة واسعة من غرف القصر ، وقدّم له مقعداً يجلس عليه ، فجلس توم مكرهاً خَجِلا ، لأنه لم يستَسغْ أن يجلس ، والغرفة مزدحمةٌ بالأشراف ، وكلهم وقوف ، فدعاهم إلى الجلوس ، فانحنوا انحناءة التعظيم ، وظلوا وقوفاً ، فسارع إليه خاله اللورد هرتفولد قائلا :

— ((مولاى لاتُلحّ عليهم ، فلا يليق آن يجلسوا فى حضرتك .)) وفى هذه اللحظة ، أعلن الحاجب قدوم اللورد سان جون ، فدخل وحيّا وقال :

— ((قدمتُ إلى مولاى بهمةٍ خاصة ، قد عهد إلىّ بالانصراف ، ماعدا اللورد هرتفولد ؟

فبدت الحيرة فى وجه توم ، فهمس اللورد هرتفولد فة أذنه أن يشسر إشارةً بيده ففعل ، ولما خلت الغرفة من الناس ، قال اللورد سان جون :

— ((يطلب صاحب الجلالة الملك من ابنه العزيز ، أن يخفى ،

ماستطاع ، هذا المرض الذى أصيب به إلى أن يأذن الله له بالشفاء وذلك لأسباب خطيرة تتعلق بسلامة الدولة ، فعليه ألاينكر أنه الأمير وارث عرش إنجلترا ، وعليه أن يكفّ عن ذكر الأصل الوضيع الذى زين له المرض أن يدّعيه ، عندما يحتفل بتقليده زمام سلطته ، وعليه أيضاً أن يقبل ذلك طائعاً وراضياً ، وأن يجتهد فى تذكر وجوه الأشخاص الذين تعوّد أن يراهم فى القصر ، وإذا شعر بحرج فى المواقف الرسمية ، فله أن يستشير اللورد هرتفولد ، أو اللورد سان جون ، فقد كُلفا أن يظلا إلى جانبه حتى صدور أمر آخر . . . هذه أوامر جلالة الملك ، وهو يدعوا الله أن يمنّ على سموّ الأمير بالشفاء العاجل .))

فقال توم فى استسلام :

– ((سمعاً وطاعةً لأوامر جلالة الملك .))

وهنا قال اللورد هرنفولد :

– ((لقد أمر مولاى الملك ، أن تنقطع ياصاحب السموّ ، عن القراءة والدرس ، وتقبل على الألعاب الرياضية والتسلية ، حتى لا يؤثر الدرس فى صحتك ، ولا تذهب إلى المأدبة مجهوداً متعباً .))

فتطلّع توم إليه مدهوشاً متسائلا ، فتناول اللورد سان جون الحديث قائلا :

– ((يلوح أن ذاكرة مولاى لاتزال مضطربة ، فالمأدبة التى أشار إليها اللورد هرتفولد ، هى المأدبة التى ستقام فى محافظة المدينة ، وقد سمح

جلالة الملك لمولاى بشهودها ، ألاتذكر ذلك ياصاحب السموّ ؟)) فقال توم متردّداً وقد علتْ وجهه حمرة الخجل :

– ((أذكر ذلك ، وكنت قد نسيته .))

ولم يكن يفرغ من عبارته ، حتى أعلن الحاجب قدوم الأميرة أليصابات والأميرة جان غراى ، فتبادل اللوردان النظرات ، وسارع اللورد هرتفولد إلى الباب وقال للأميرتين بصوت منخفض :

– ((أرجو منكما ياصاحبّى السموّ ، ألا تظهرا أىّ دهش من حالة الأمير فإنه قد فقد ذاكرته .))

وفى هذه الأثناء ، كان اللورد سان جون يهمس فى أذن توم :

– ((مولاى ، لا تنس نصائح جلالة الملك . . . حاول أن تتذكركل شئ ، ولا تنس يامولاى مالك من منزلة فى قلب الأميرتين . . . هل تريد يامولاى أن نظلّ أنا واللورد هرتفولد إلى جانبك ؟))

فهزّ توم رأسه دلالة على الرضى ، وقد صمَّم على أن يقبل الوضع الذى هو فيه ، وأن يطيع أوامر الملك .

ولم تَخْلُ هذه الزيارة من مواقف حرجة ، مع كلّ ما بذله توم من حِرْص وحذرَ ، فى التحدَّث إلى الأميرتين ، ثم جاء عرضاً ذكر انقطاع الأمير عن الدراسة ، فقالت الأميرة غراى :

ـ ((لاتجزعْ ياصاحب السموّ ، فسوف تستأنف الدراسة ، وتصبح يوماً مثل أبيك الملك علماً وثقافة .))



فنسى توم نفسه وصاح :

- ((أتحدثينى عن أبى ؟ وعن علمه وثقافته ؟ وهو الذى لا يستطيع أحدٌ أن يفهم كلامه غير الخنازير و . . .))

ثم استدرك فقال فى خجلٍ وبصوتٍ منخفضٍ :

– ((لعنة الله على المرض ، إنه عاد يلاحقنى . . فما قصدتُ قطّ أن أسئ إلى الملك .))

فقالت الأميرة أليصابات وقد أخذت يد ((أخيها)) فى يديها : – ((لا تقلق فالذنب ذنب المرض . . .))

وفى هذه الأثناء وجهت الأميرة غراى الخبيثة ، سؤالا إلى توم . باللغة اليونانية فأدركت الأميرة أليصابات من وجوم توم ، أن السؤال قد ضلّ الهدف ، فعمدتْ إلى تغيير الحديث . . .

ولما رأى توم أنّ جميع منْ حوله يساعدونه على تدراك هفواته ، وعلى أن يروا فيه الأمير الحقيقى ، استسلم للواقع ، وقوّى قلبه . ولشد ما اغتبط وفرح لما علم من الأميرتين ، أنهما ستصحبانه إلى المأدبة التى سيقيمها محافظ المدينة ، وهو الذى خشى قبل ساعة واحدة أن يجتمع بهما .

ولمّا انصرفت الأميرتان ، طلب توم من اللوردين أن يسيرا به إلى مخدعه ليستريح ، فذهبا به إليه . وكانت أول حركة أتى بها توم فى مخدعه ، أن مدّ يده إلى قدح ليشرب به ، ولكنه ما كاد يمدّ يده . حتى سبقه إليه خادمٌ يتألق فى ملابس من الحرير والمخمل ، وجثا على إحدى ركبتيه ، وقدّمه إليه على صينية من الذهب . ثم شاء توم أن يخلع حذاءه ، فأسرع خادمٌ آخر يرتدى ملابس من الحرير والمخمل ، وخلع له حذاءه . وهكذا كان كلما أراد القيام بشأن من شئونه ، سبقه إليه الخدم ، فرضِىَ وأذعن ، وهو يقول فى نفسه :

– ((من يدرى ؟ لعلهم يتنفسون أيضاً بدلا منى !)) ثم تمدّد توم على مقعدٍ وثير طلباً للراحة ، وأمر الخدم فانصرفوا ، وانتحى اللورد هرتفولد واللورد جون ناحيةً فى الغرفة المجاورة ، وأفاضا همساً فى أحاديث منوّعة ، حتى قال اللورد سان جون :

– ((لا أخفى عنك يالورد قلقى واضطرابى ، فالملك يجتاز أيامه الأخيرة ، وابنه الذى سيخلفه على العرش مخبولٌ مجنون ، كان الله فى عون إنجلترا ! . . ولا أخفى عنك أيضاً شكوكى فى . . .))

وسكت اللورد سان جون متردّداً فقال له اللورد هرتفولد :

– ((أتمم حديثك ، فليس منْ يسمعك غيرى . . شكوكٌ فى ماذا ؟))

فقال اللورد سان جون :

– ((أخشى أن أفصح عما يجول بخاطرى ياسيدى ، ولا سيما أنك خاله ، فعذراً إن رأيت فى كلامى ما لا يليق به ، ولكن ألا يدهشك أن جنون الأمير يتمثل أيضاً فى حركاته وسكناته ؟ إنّ تصرفه لا ريب تصرّف الأمراء ، ولكنه يختلف عما ألفناه منه . أليس من الغريب أن يجعله الجنون لا يتذكر وجه أبيه ، وينسيه اللغة الفرنسية ، واللغة اليونانية ، ولايبقى إلا على اللغة اللاتينية . . . لقد أعلن غير مرّة أنه ليس الأمير ، ونفسى تحدّثنى بأنه صادقٌ فى قوله . . .))

فقال اللورد هرتفولد :

– ((حاذر يالورد ، فحديثك يدخل فى نطاق الخيانة العظمى ، وإنى لشريكٌ لك فى الجريمة إذا أنا أصغيتُ إليك .))

فاصفرّ وجه سان جون وقال :

– ((سامحني ياسيدى ، فلن أعود إلى مثل هذا الحديث ، ولا إلى التفكير فيه))

ثم استأذن فى الانصراف فأذن له ، وبقى اللورد هرتفولد وحده فى الغرفة يفكر ويقول فى نفسه :

– ((لا أعتقد أنه الأمير ، ولا أظنّ أنّ فى البلاد فتيين يتشابهان هذا التشابه الغريب ، ويجرى فى عروقها دمٌ مختلف ، وإذا فرضًا وجود هذين الفتيين ، فبأى اتفاق عجيب حلّ أحدهما محلّ الآخر ؟))



٧

خاتم الدولة

فى نحو الساعة الخامسة من صباح اليوم التالى ، استيقظ الملك هنرى الثامن مضطرباً ، فقد رأى فى منامه أحلاماً أزعجته ، فناجى نفسه قائلا :

- ((نعم إن خاتمى تقترب ، ولكن يجب علىّ قبل أن أموت أن أتخلص منه)) . . . وبعد قليل ، دعا إليه وزير الدولة ، فجاء مسرعاً ، وجثا أمام السرير وقال :

- ((لقد نفذتُ أمر مولاى الملك ، وطلبت إلى اللوردات أن يذهبوا إلى البرلمان فى حللهم الرسمية ، للموافقة على شنق مارشال الدولة و . . .))

فأبرقت أسارير الملك وقال :

- ((أنهضنى قليلا . . . سأذهب أنا نفسى إلى البرلمان ، وأختِم بيدى ذلك الحكم الذى سيصدر بشنق مارشال . . .))

ولكنّ صوته اختنق فجأة ، وعلتْ وجهه صفرة الموت ، فأسعف بالأدوية ، فلما أفاق قال متأسفاً :

- ((كم انتظرتُ هذه الساعة المباركة ، ولكنها جاءت متأخرة . . .

عجّل ياوزيرى فى تأليف لجنه تتولى خَتم الحكم بخاتك الدولة . . .))
فقال الوزير :
((ستنفَّذ مشيئة مولاى . . . فهل يتفصل مولاى فيأمر بأن أتسلم خاتَم الدولة ، حتى أستطيع القيام بالمهمة ؟)) فقال الملك مدهوشاً مستنكراً :
- ((خاتم الدولة ؟ ! ولكنه عندك)) فقال الوزير :
- ((هل يسمح مولاى بأن أذكّره أنه استردّه منى منذ يومين ، وهو يقول لى : لن يُستعمل هذا الخاتم قبل التوقيع به على الحكم بشنق المارشال ؟)) فقال الملك :
- ((نعم نعم لقد تذكرت . . . ولكن أين وضعتُه ؟ إن الذاكرة تخوننى))
وكان اللورد هرتفولد قد حضر هو وفريق من اللوردات فقال :
وكان اللورد هرتفولد قد حضر هو وفريق من اللوردات فقال :
- ((مولاى إنى لأذكر أن جلالتكم قد سلمتم الخاتم إلى الأمير ولىّ العهد استعداداً لليوم . . .))
فقاطعه الملك وقال :
- ((صحيح . صحيح . اذهب وائتنى به . . . أسرع . . . أسرَع . .)) فعاد اللورد هرتفولد بعد دقائق صفْر اليدين ، وعلى وجهه أمارات الاضطراب فقال :
- ((عفواً يامولاى ، إنّ سموّ الأمير لا يذكر أنه تسلم خاتم الدولة . . .)) فتجهم وجه الملك . وأدار نظره فى الحاضرين ، فوقع

على وزير الدولة فصاح فيه مغضباً :

- ((ألاتزال أنت هنا ؟ ! . .))

فقال الوزير مضطرباً :

- ((مولاى عفواً إنى فى انتظار الخاتم . . .)) فقال الملك : - ((أفقدْتَ أنت أيضاً صوابك ؟ !

أليس فى خزانتى الخاتم الصغير الذى كنتُ أستعمله فيما مضى ؟ أفلا يكفى الخاتم الصغير إذا ضاع خاتم الدولة الكبير ؟ . . . هل فقدت حضور الذهن وحسن التصرّف ؟ . . اذهب ولا تأتى إلا ومعك رأس المارشال ! . .))

فجرى الوزير ، ودبر ورجال البرلمان ما أراد الملك ، وحُدّد لشنق المارشال فجر اليوم التالى .



٨

حفلة على نهر التاميز

في الساعة التاسعة مساء كانت وجهه القصر الملكى التى تُفضى إلى نهر التاميز ، متألقة ، كأنها شعلةٌ من النور . وكانت صفحة النهر غاصّة بالمراكب وقد خفقتْ فوق سارياتها الأعلام ، واتقدتْ فى جنباتها المشاعل ، وازدانت بالفُرُش الوثيرة المنوّعة الألوان ، حتى ليخيل إلى الناظر إليها أنها حديقةٌ نبتتْ على صفحة نهر التاميز وحفلتْ بمختلف أنواع الورد والزهر ، وكان فى بعض هذه المراكب ، جوقاتٌ موسيقية ، تتناوب العزف هى وجوقة القصر ، فلا تسكت هذه ، حتى تبادر تلك إلى أعذب الألحان . وكان السلّم الذى يصل بين القصر والنهر ، أعجوبةً من أعاجيب الزُّخرف والزّينة ، فقد فُرِش بالبُسُط الفاخرة ، وزُيّن بالأعلام والمصابيح ، واصطفّ الحرس على جانبيه بملابسهم المزركشة ، ودروعهم اللامعة ، وأسلحتهم البرّاقة . أما ضفتا النهر ، فقد ازدحمتا بالناس ، جاءوا إليهما من كل حَدَب وصَوْب ، ليشهدوا ذلك الاحتفال الفخم الذى يقيمه محافظ المدينة ، والذى سيشهده ولىّ العهد ، ورجال القصر ، والعظماء والكبراء . . .

وبينما كان الناس فى هَرْج ومَرْج ، يتحدّثون تارة ، ويغنّون أخرى ، إذا بالطبول تدُقّ ، والأبواق تتعالى أصواتها فى القضاء ، وإذا بقعقعة السلاح تنحدّر من القصر إلى الآذان فيُسمع لها رنينٌ جميل ، وإذا بحارس حسن البِزّة جهير الصّوت ، يعلن قدوم صاحب السموّ الملكيّ الأمير إدورد ، ولىّ العهد . ثم بدا الأمير ، وأخذ ينزل من ذلك السلم درجةً درجةً ، فى عظمة ورفعة ، وقد ارتدى أفخر حُلله ، وزان صدره بالرّصائع والأوسمة ، وكان اللورد هرتفولد يهبط السلم متمهّلاً وظهره إلى النهر ، ووجهه إلى الأمير ، وسار وراء الأمير جماعات السفراء ، ورجال القصر والدولة . . وهكذا انتظم عِقْد هذا المهرجان الفخم ، وقد برز فيه للجموع المحتشدة ، توم كانتى الفتى المتسوّل الحقير ، المولود فى ساحة القاذورات . . .



٩
مصائب الأمير

تركنا جون كانتى يحمِل الأمير إلى ساحة القاذورات ، والأمير يحاول عبثاً أن يتخلص منه ، ويرجوا أن يسعفه ذلك الجمهور الذى يتبعه ، فما تصدّى لحمايته إلا رجلٌ واحد ، ضاع صوته بين الأصوات المتعالية من جموع الرّعاع ، وهم يضحكون ويستهزئون . ومازال الفتى يقاوم جون كانتى ، حتى نفِذ صبر هذا ، فألقى به فى الأرض ، ورفع هِراوته وأهوى بها على رأسه . فانقضّ الرجل النبيل على ذراع جون كانتى ، ليحول دون الهراوة ورأس ذلك الفتى المسكين ، فتلقى هو الضربة على رأسه ، فوقع مغشياً عليه ، ولم يحفل به أحدٌ من جمهور الرّعاع ، بل ساروا وراء جون كانتى وهو يجُرّ الأمير إلى مسكنه ، حتى أدخله فيه ، وأقفل الباب دون الجمع الذى كان يتبعه.

وسرّح الأمير بصره فى جوانب غرفة يضيئها مصباحٌ ضئيل ، فرأى فتاتين فى ثياب قذرة ،وإلى جانبهما سيدةٌ يلوح أنها أمهما ، ورأى فى ركن آخر من الغرفة عجوزاً شمطاء خاطبها جون كانتى قائلا :

— ((انتظرى قليلاً . . . اسمعى أوّلا تلك الخُرافات التى سيقولها ،

ثم استعملى يديك كما تشائين . . . اقترب أيها الوَغْد . . . أعدْ على مسمعنا سَخافاتك إن كنت لم تنسها . . . ما اسمك ؟ ومن أنت ؟ فقال الأمير : — ((ليس لك أيها الرّجل أن تصدر إلىّ الأوامر . . . فأنا إدورد ولىّ عهد إنجلترا .))

فأغربت العجوز وابنها فى الضَّحِك ، أما الفتاتان وأمهما فقد توقعن سؤ العاقبة ، فاقتربن من الأمير صائحات :

— ((مسكين ياتوم ! كان الله فى عونك !)) واقتربت الأم من الأمير ، ووضعتْ يديها على كَتِفَيه ، وحدّ قت فيه طويلا ، ثم قالت بصوت تخنقه العبرات : — ((ولدى المسكين ، إن مطالعاتك هى التى ذهبت بعقلك . . . كم حذّرتك منها فلم تصخ إلىّ ، واحسرتاه عليك !))

فنظر إليها الأمير وقال لها متلطفاً : — ((إن ابنك ياسيدتى لم يفقد عقله ، فدعونى أرجع إلى القصر ، حيث ينتظرنى ابنك ، ولكم علىّ أن أطلب من أبى الملك أن يعيده إليكم فى الحال .))

فقالت الأم :

— ((أبوك الملك ؟ واهاً عليك ياولدى ! أقلعْ عن هذه الأوهام ، وانظر إلىّ ، ألست أمك ؟)) فقال الأمير :

— ((يعزّ علىّ ياسيدتى أن أقول لك إنى لا أعرفك ، فما رأيتك

قبل اليوم .)) فارتمت المرأة على مقعد من المقاعد ، وغطت وجهها بيديها ، وأجهشت بالبكاء .

وتقدّمت إحدى الفتاتين من أبيها ، وتوسلت إليه أن يسمح لأخيها بالذّهاب إلى فراشه ، فالنوم والراحة كفيلان بأن يعيدا إليه وَعْيهَ ، وتقدّمت إليه الأخرى ، وزكت طلب أختها ، ووعدت آباها بأن يعود توم غداً من التسوّل بأكبر نصيب ، فبدا على الأب أنه قَبِل شفاعة الابنتين ، فدنا من الأمير وسأله :

- ((أرنى ماذا جمعت اليوم أيها الكسلان ؟)) فقال الأمير :

- ((إياك أن تهيننى بمثل هذه الأقوال ، أكرر عليك أنى ابن الملك.))

فصفعه جون كانتى صفعةً رمته فى حِضْن والدة توم ، فضمته إلى صدرها لتحميه من الصّفعات التالية ، فانسحب منها وقال :

- ((اتركينى أتحمل الضرب وحدى ياسيدتى .))

فهجم عليه جون كانتى وأمه العجوز ، وأشبعاه ضرباً ، ثم زأر الأب زئيره ، وأطفأ المصباح ، وأمرهم جميعاً بأن يأووا إلى فِراشهم .

وبعد هنيهة ، شعر الأمير بأم توم وشقيقتيه يزحفن إليه فى الظلام حتى إذا اقتربن منه أخذن يواسينه ويرطّبن خاطره ، وكانت الأمّ الأمير ، ووعدها أن يغدق عليها الخير والرزق ، فطاش حِلْم السيدة إذ رأته يعود إلى جنونه ، ورجعت هى وابنتاها إلى فراشهن ، يذرِفن الدمع السخين . ولما لم تجد

أمٌّ توم إلى النوم سبيلا ، استلمت إلى التفكير ، وهتف هاتفٌ فى صدرها أنّ فى هذا الفتى شيئاً لم تعرفه فى ابنها توم من قبلُ ، فدبَ دبيب الشكَ فى قلبها ، وأخذت تفكر لعلها تعثر على بُرْهان ، تستطيع به أن تجزم أهذا الفتى ابنها أم هو فتى غيره ؟ .

وكانت كلما وقعت على بُرهان ، تركته إلى غيره ، وكان الفتى فى تلك الأثناء قد غلبه النعاس فغطّ فى نومه ، ثم انقطع ذلك الغطيط بصيحةٍ قصيرة تصدر من النائم إذا كان فريسة الكابوس ، فابتهجت وقالت :

((لقد عثرتُ على الدليل الذى لايُدْحض)) ، فقد تذكرتْ أنّ ابنها عندما كان صغيراً ، أطلِق بجانبه يوماً رشٌّ من البارود ، فذُعر وحمى وجهه بكفّه ، ولكنه لم يفعل كما يفعل جميع الناس ، بل إنه حمى وجهه بظهر كفه . وتذكرتْ أيضاً أنّ ابنها كان كلما هبّ من نومه ، حمى وجهه بالطريقة نفسها ، فنهضت فى خفة وحذر ، واشعلت المصباح ، وغطّت نوره بإحدى كفّيها ، واقترب من فراش الفتى ، وقلبها يخفق حفقاناً شديداً ، حتى إذا وصلت إليه ، سلطت النور على وجهه ، وأخذت تنقُر على أرض الغرفة ، فاستيقظ الفتى مذعوراً ، وفتح عينيه ، ولكنه لم يأت بالحَركة المعهودة ، فطمأنته وعادت إلى فراشها واليأس يكاد يقتلها .

وكرّرت هذه التجربة ثلاث مرّات ، لعلها لا تخيب فى إحداها ،

فتقتنع أن الفتى هو ابنها ، فما ظفِرت بطائل .

وفى المرة الرابعة ، صحا الأمير على طرق شديد كاد يخلع الباب ، فأرهف سمعه ولم يُبْد حراكاً ، وكان جون كانتى قد استيقظ أيضاً ، فصاح : — ((مَن الطارق ؟ وماذا يريد ؟)) فقال الطارق :

— ((أتعرف ياجون كانتى مَنْ ضربتَ أمس بهِرواتك ؟)) فقال :

— ((كلا ، وماذا يهمنى ؟)) فقال الطارق : — ((ستغير رأيك متى عرفت أن الرجل يلفِظ أنفاسه الأخيرة ، إنه الأب أندريه . . . فإن كنت حريصاً على حياتك ، فاهرب فى الحال .))

فهبّ جون كانتى من فراشه ، وأيقظ أهل بيته جميعاً ، وساربهم فى جُنْح الظلام لائذاً بالفِرار ، وقد أطبق بيده الضّخمة على يد الأمير ، وجرّه معه . وقبل أن يغادروا المنزل ، أوصاهم بالحذر والكتمان ، وقال :

— ((إن قدّر لنا أن نفترق ، فالملتقى عند جسر لندن ، ومن هناك نهرُب معاً إلى بلدة أخرى .))

سارت القافلة تخترق الأزقة والحارات ، حتى وصلت إلى إحدى ضفتى نهر التاميز ، فشاهدت مشهداً عجباً : أنواراً ساطعه ، ومراكب تملأ النهر ، وأقواماً يغنون ويرقصون ويهتفون . فخاف جون كانتى . وأراد أن يرجع من حيثُ أتى ، غير أن الأسرة الهاربة كانت قد غاصت فى



غمرة الزّحام ، فتعذّر عليها الرجوع بل اضطُرّب إلى أن ينفصل بعضها عم بعض . فعلّل الأمير نفسه بالفرار فى وسط ذلك الزِّحام ، ولكن قبضة جون كانتى كانت مطبقةً على يده مثل كلآبة الحديد .

وفيما كان كانتى يحاول أن يخترق الصّفوف ، اصطدم بنوتىّ ضخمْ الهيكل ، عريض المنكبين ، يتَرنح سكراً . فالتفت إليه النوتى محنقاً وأمسكه من كتفه وقال له متهكماً :

- ((أراك مستعجلا ياصديقى . . .)) فقال جون كانتى :

- ((ليس هذا من شأنك . . . ارفع يدك عن كتفى ودعنى أتابع مسيرى .)) فقال النوتى :

- ((لن أدعك حتى تشرب على ذكر ولىّ العهد .)) فقال جون كانتى

- ((حسناً . . . هات . . . عجّلْ .))

وكان الحادث قد سرّ بعض الرّعاع ، فتجمعوا حول كانتى وصاحوا بالنوتىّ :

- ((هات له " جرّة الحبِّ " يشرب منها .))

فجئ بجرّة ضخمة ، أمسكها النوتىّ بإحدى أذنيها ، وقدّمها إلى كانتى . وتقضى التقاليد المرعية بأن يسمك كانتى الجرّة بيد ، ويرفع بالأخرى الغطاء عنها ، ففعل ، واضطرّ مكرهاً إلى أن يترك يد الأمير عدّة ثوان ، فاغتنمها هذا فرصةً ثمينة ، وتوغل فى تلك الغابة البشرية ، وعرف الأمير أن ذلك الاحتفال لا بدّ أن يكون من أجل أمير



مزيّف ، ولا بدّ أن يكون هذا هو توم كانتي ، فكان كلّ همّه أن يصل إلى دار المحافظة ، ويميط اللثام عن ذلك الخدّاع ، ليأخذ طريقة إلى المشنقة .

١٠
دار المحافظة

سار موكب ولىّ العهد المزَيّف فى نهر التاميز ، يحرسه أسطولٌ من المراكب ، وكان توم كانتى مأخوذ اللبّ بتلك المناظر الساحرة ، فأطلق لنفسه العنان ، تسبح فى عالم لذيذ من الخيال . أما الأميرة أليصابات والأميرة غراى ، فلم تجدا فى ذلك الاحتفال شيئاً يخرج عن المألوف ، لكثرة ما شهدتا من أمثاله .

وبعد مسير نصف ساعة فى عرض البحر ، وتحت جسور أثقلتها عناقيد من البشر ، وصل الموكب الملكىّ إلى نهاية مطافه ، فغادره توم إلى دار المحافظة ، تتبعه أسراب المدعوّين .

ولقد تلألأت دار المحافظة بالأنوار ، كالجوهرة الساطعة ، وأقيم فيها احتفالٌ أنيق ، يعجز القلم عن وصف ما أحاط به من تَرَف وسخاء ،وماتجلى فيه من آيات الذوق والنظام ، وما حفلَت به الموائد من شهىّ الطعام والشراب .وفى الوقت الذى كان فيه توم كانتى يحملق فى الراقصين والراقصات، وينعم بملذّات ذلك الفِرْدَوْس الأرضى ، كان الأمير الحقيقى واقفاً على باب دار المحافظة ، يحاول أن يقنع الحراس



بأنه الأمير ولىّ العهد ، ويطلب إليهم أن يسمحوا له بالدخول ، ليكشف أمر ذلك الخداع .

وكأنما طَرب المتجمهرون على باب دار المحافظة لهذا الحادث الفريد، فزادوا فى سُخْريتهم من الأمير ، ليحموه على أن يزداد غضباً ، فيزدادوا سروراً . فالتفت إليهم والدموع تترقرق فى عينيه وقال :

– ((أكرّر عليكم أيها الكلاب ، أنى أنا الأمير ولىّ العهد ، فإن لم يكن لى صديقٌ يدافع عنى ، ويتكلم باسمى ، فلن أنزِل مع ذلك عن حقوقى .)) فقال له أحد السامعين :

– ((سواء كنت الأمير أم لم تكنه ، فلن أترك فتًى شجاعاً مثلك بلا صديق يسعفه .)) ثم تقدّم منه وقال له بصوت منخفض :

– ((ليس بمثل ما تلفظت به يخاطَب هؤلاؤ الأشرار ياولدى .))

وكان المتكلم رجلاً طويل القامة بادى القوة ، يتدلّى من جانبه سيفٌ طويل ، ولكنّ الغِمدْ كان يعلوه الصّدأ ، كما أنّ ثيابه كان يبدو عليها البلى ، فكان مظهره يدُلّ على أنه جندىّ قضى حياته فى ميادين القتال .

على أن الجمهور قابل حديثه بالاستهزاء ، فصاح أحدهم متهكماً :

– ((لعله أميرٌ آخر متنكر . . .)) وصاح آخر :

– ((هيّا ننتزع منه الصبىّ ، ونلق الرجل فى . . .))

فهجم أحدهم على الأمير ، وأمسك به ، وفى أسرع من تردّد



الطرف ، كان الرجل قد امتشق حسامه ، وضرب بصفحته المعتدى ، وحال بينه وبين الأمير ، فهبت فى الجوّ عاصفةٌ من الشتائم ، انتهت بقول جماعة من هؤلاء الرّعاع :

– ((اقتلوه ! . . . اقتلوه ! . . . اقتلواهذا الكلب ! . . .))

وتكاثر القوم على الرجل ، فجَرَّ الأمير من يده ، واستند إلى حائط يحمى به ظهره ، وبدأ يعمل سيفه الطويل فى المهاجمين غير أن

الجُمهور تألب عليه ، فضاقت المساحة التى يلاعب فيها سيفه، فأيقن بالهلاك ، وإذا بالبوق يدقّ ، وبصوت يرتفع فى تلك الجَلَبَة قائلا :

– ((افسحوا فى الطريق لرسول الملك .))

وعلى الأثر وصلت كوكبة من الفرسان ، فتفرّق الجمهور كقطيع من الغنم ، وانتهز الرجل الفرصة ، فحمل الأمير بين يديه ، وابتعد عن موطن الخطر . وكان صوت البوق قد وصل إلى الأسماع فى نار المحافظة ، فوقفت الموسيقى عن العزف ، وامتنع الراقصون عن الرقص ، واشرأبَّت الأعناق إلى رسول القصر ، فسمعه الناس يلفظ بلهجةٍ خطيرةٍ :

((مات الملك !))

فأحنى السامعون رؤوسهم ، ثم ركعوا ممدودى الأيدى إلى توم ، وقالوا بصوت واحد :

– ((عاش الملك !))

فأجال توم بصره فى وجوه الحاضرين ، حتى استقر على اللورد هرتفولد، فقال له همْساً :

– ((أصدقنى يالورد بشرفك ، لو أنى أصدرت الآن أمراً من مثل الأوامر التى لا تصدر إلا عن الملك ، أينفذ هذا الأمر أم يعترض عليه معترض؟)) فقال اللورد :

– ((ليس فى جميع مملكتك مَنْ يعترض على أمر تصدره يامولاى،



فاستوى توم فى جلسته ، وقال بصوت عالٍ واضح يفيض بالحماسة : — ((منذ هذا اليوم ، ستصبح شريعة الملك شريعة الرحمة ، لا شريعة الدم . انهض يالورد هرتفولد ، واذهب مسرعاً إلى معتقل مارشال الدولة ، وقل : إن الملك قد أمر بالعفو عن المارشال .))

وسارع اللورد هرتفولد إلى الباب ليمضى فى تنفيذ أمر الملك . ودوّت القاعة بصوت خرج من جميع الأفواه قائلا :

— ((لقد انتهى حكم الدم . إدورد ملك إنجلترا !))



١١
الأمير ومنقذه

لما ابتعد الرجل – واسمه ((مايار هندن)) – بالأمير ، أسرع هو والأمير فى السير ، حتى وصلا إلى جسر لندن ، فعاد الزحام إلى أشدّة ، فأمسك هندن بيد الأمير ، أو بالأخرى بيد الملك ، حتى لايفترق عنه وسط الزّحام ، وكانت الأنباء ذاعت عن موت الملك ، فعلم بها الفتى ، وتحدّر الدمع من عينيه ، ثم سمع الجمهور يهتف بحياة الملك إدورد السادس ، فشعر بحاسّة غريبة عند هذا الهتاف .

ومشى هندن والفتى يخترقان الزّحام ، وكاد هندن يصل إلى فندقه ، حينما سمع صوتاً يخاطب الفتى قائلا :

– ((لن تهرُب منى بعد . . سأطحن عظامك وأعلّمك كيف تجعلنا ننتظرك .)) ومدّ جون كانتى يده يمسك بتلابيب الفتى ، فاعترضه مايلز هندن وقال :

– ((أىّ حقّ لك على هذا الفتى ؟)) فقال جون كانتى :

– ((حق الأبوة ! . . .)) فصاح الملك الصغير مغضباً :



– ((هذا كذب !)) فقال هندن للغلام :

– ((إنى أصدقك ياعزيزى ، سواء أكنتَ فاقد الصّواب أم سليم الرشد ، فوحق سيفى لو فضّلت البقاء معى ، لتكوننّ يد هذا الرجل أقصر من أن تمسك بسؤ .)) فقال الملك :

– ((أريد البقاء معك ، فلست أعرف هذا الرجل ، وأفضّل الموت ألف مرّة على أن أصحبه .)) فقال هندن :

– ((إذن اتفقنا)) فصاح كانتى :

– ((ولكن أنا لم أتفق .))

وحاول أن يزيح هندن من طريقه إلى الفتى ، فتصدّى له هندن ، وقد وضع كفه على مقبض سيفه وقال :

((إذا لمسته فسوف أدقّ عنقك . . . لقد أنقذتُ هذا الفتى من عصابة أشرار مثلك ، ولن أتركه لمصير أسوأ ، فإن كنت أباه أو لم تكن – وأغلب الظن أنك لست أباه – فخيرٌ له أن يموت ، من أن يعيش مع وحش مثلك، فاذهب في طريقك وأسرع ، فليس من شيمتى الصبر .))

فابتعد جون كانتى وهو يسبّ ويلعن ، وذهب هندن بالفتى إلى الفندق، وكان فندقاً متواضعاً ، فطلب أن يجهز لهما الطعام . أما الفتى فاستلقى إلى السرير خائر القوى من التعب والجوع ، فنظر إليه هندن فى حَنان وشفقة ، وقال فى نفسه :

– ((يعجبنى فى هذا الفتى الصراحة والشجاعة ، فقد مالت نفسى إليه ، وسأحميه دون كل عُدّوان . . . ترى أمخبولٌ هو أم يتظاهر بالخبل ؟ أيظلّ غداً يدّعى أنه الأمير أم يطالب بالمُلْك بعد موت الملك ؟ لقد غبت عن أهلى عشر سنوات ، فإن كان أبى لا يزال حياًّ فسيجيبنى إلى طلبى ، ويرضى ببقاء هذا الفتى معنا ، ولا إخال أخى الأكبر يعارض فى ذلك ، أما أخى هيوز ، المجرد من الرحمة والمرؤة ، فإن مانع فسأعرف كيف أرغمه .

وهنا دخل الخادم بطعام شهىّ ساخن ، ووضعه على مِنْضَدَة وانصرف ، فصحا الملك على حركة الخادم ونهض من السرير ، ومضى

إلى مغسل فى ركن من أركان الغرفة ، وانتظر ، فاقترب منه هندن وقال : — ((إنّ هذه النومة الخفيفة التى نمتها ، وهذا الطعام الشهىّ ، سيعيدان إليك القوة فلا تخف .))

فلم يجب الفتى ، بل ظلّ ينظُر إلى هندن فى شئ من الاستغراب وقلة الصبر ، فحار هندن فى أمر الفتى وسأله :

— ((ماذا يضايقك ؟)) فقال :

— ((أريد أن أغسل وجهى أيها الرجل . . .)) فقال هندن :

— ((أتستأذننى فى ذلك ؟ . . . اغتسل كيف شئت !))

فلم يتحرك الفتىٍ من مكانه ، بل نفِد صبره ، وضرب الأرض برجله ، فسأله هندن متعجباً :

— ((وماذا أيضاً ؟)) فقال الملك :

— ((صُبّ على يدى الماء ولا تكثر من الكلام .))

فكاد هندن ينفجر من الضحك ، ولكنه كتم ضحكته ، وأجابه إلى ماطلب منه ، فقال الملك الصغير :

— ((أين المنشفة ، وكانت أمام الفتى ، فقدّمها إليه .

ذهب الفتى إلى المائدة وجلس ، وهمّ هندن أن يجلس على الكرسىّ الآخر قبالَته ، فسمعه يقول :

— ((قف . . . ليس من يجلس فى حضرة الملك .))

فأحس هندن فى نفسه حسرةً على الفتى ، وقال إن جنون الفتى يتغير بتغير حوادث البلاد ، فمنذ مات الملك يزعُم أنه الملك ، فلأجرين معه على هواه ، خوف أن يرسلنى إلى السجن . فأمسك عن الجلوس ، ووقف إلى جانب الملك يخدمه وهو يأكل ، فبعد أن أكل وشبع قال :

– ((قلتَ لى إنك تُدْعىَ مايلز هندن ؟)) فقال هندن :

– ((نعم ياصاحب الجلالة .)) فقال الملك الصغير :

– ((قصَّ علىّ سيرة حياتك ، فإنى أحب أن أعرفها . . . هل أنت من النبلأ ؟ . . .)) فقال هندن :

– ((إنى ابن البارون ريشارد هندن ، وليس فى سيرة حياتى مايهمّ مولاى ، ولكننى أقصها على سمع مولاى لعله يجد فيها تسلية وسروراً . . طردنى أبى من المنزل ، بعد إذ أوغر أخى الأصغر صدر أبى علىّ ، فتطوّعت فى الجيش ، وحاربت ثلاث سنوات لاقيت فيها الأهوال ، ثم أسرت ، وقضيت فى الأسر سبع سنوات ، وتمكنت بعد ذلك من الهرب ، وها أنا ذا أعود إلى أهلى بلا مالٍ ولا ملابس ، فلست أدرى ماذا يكون مصيرى . واعلم يامولاى أن السبب الذى من أجله دبر لى أخى المكيدة ، هو أنه كان يريد إبعادى عن ابنة عم لى كثيرة الغنى ، وكنا قد تعاهدنا على الزواج ، ولكن أبى كان يريد أن يزفّها إلى ((آرثر)) أخى الأكبر .)) فقال الملك :

– ((لقد أساءوا معاملتك ، ولكننى سأجرى العدل مجراه ، هذا

وعد الملك .)) ثم شرع الملك يقصّ على هندن حكايته ، وهندن يحسبها قصّةً خيالية ، ويعجب بهذا الخيال الخصب الذى يبتدع به الحوادث ، إلى أن سمعه يُنهى حديثه قائلا :

– ((لقد أنقذتَنى من محنتى ، فأنقذت معى تاجى ، فأنت تستحق مكافأة جزيلة ، فاذكر لى رغباتك تنل ما تشتهى .))

فركع هندن أمام الملك وقال :

– ((مولاى ! لم أفعل إلا ما يُمليه الولاء والإخلاص على كل فرد من رعاياك المخلصين ، ولا أرى أنى قمت بأمر أستحقّ عليه جزاء ، غير أنى ، نزولا عند رغبة مولاى ، ألتمس من مراحمة أن يكون لى ، ولذريتى من بعدى ، شرف الجلوس فى حضرة جلالة ملك إنجلترا !))

فقال الملك بصوت خطير :

– ((انهض ياسير مايلز هندن . . . لقد أجبتك إلى طلبك . . . انهض واجلس فى حضرتى . . . وستنعم ذرّيتك بهذا الشرف ما دام عرش إنجلترا قائماً . . .))

فجلس هندن وهو يقول فى نفسه : لولا هذه الحيلة لبقيت واقفاً طول الوقت ، حتى يشفى هذا الفتى من مرضه . . . ولكن الغريب أنه يتكلم بلهجة كلها جدٌّ وخطر . . . فلأتركه على هواه . . .

وفى فجر اليوم التالى ، بينما كان الفتى نائماً يهيم فى بوادى الأحلام ،

خرج هندن من الغرفة على أطراف أصابعه ، ومضى إلى السوق ليشترى له ملابس بَدَلَ ملابسه الممزَّقة .

وعاد هندن حوالى الظهر إلى الفندق ، ومعه بذلة مستعملة ، اشتراها من تاجر الملابسة العتيقة . ولا تسل عن دهشته لما لم يعثر للفتى على أثر ، فتملكه الغضب ، ودعا خادم الفندق وسأله عن الفتى فقال له :

— ((بعد خروجك ياسيدى جاء شاب إلى الفندق ، وقال إنه موفدٌ من قِبَلك ليصحب الفتى إلى حيث تنتظره ، فمضى الفتى معه متبّرماً ، وقد سمعه يقول : كان الأليق أن يحضر هو نفسه ، بدل أن يرسل إلىّ رسولا مجهولا .))

فاندفع هندن إلى الباب ، ونزل درجات السلم أربعاً أربعاً ، ومضى يبحث عن الفتى ، ويرجو ألايكون قد أصيب بمكروه . . .

١٢

مات الملك . . . عاش الملك

وفى فجر اليوم نفسه ، استيقظ توم كانتى ، وفيه تراخ ووَهن، وأخذ يتقلَّب فى فراشه ، وبحمد الله أنه صحا من تلك الأحلامً العجيبة التى غمرته ، وإذا به يسمع أحداً يسأله :

— ((هل يتفضّل مولاى بإصدار أوامره)) ؟ فحملق فى الرجل وفيما يحيط به ، وخيل إليه أن الحلم لا يزال مستمراً ، فقال :

— ((اذهب واسترح ياميلورد واتركنى وشأنى . . .)) وعاد إلى النوم ، يستيقظ هذه المرة إلا على صوت يقول له :

— ((هل يتفضل مولاى بالنهوض ، فالنهار فى ضَحْوَته ؟))

فنهض توم متثاقلا ، وامتلأت حجرته بالخدم والحشم ، والأتباع والأشراف ، وكل واحد منهم له عملُ خاصُّ يقوم به تزيين الملك ، ومساعدته على ارتداء ملابسه ، حتى كانت فردة الحذاء لاتصل إلى قدَم الملك ، إلا بعد أن تمرّ من يد إلى يد إلى يد ، فصبر توم مكرهاً على هذه التقاليد ، حتى أتمّ زينته ، وسار بعد ذلك فى موكب حافل إلى



غرفة المائدة ، ليتناول طعام الإفطار ، واتجه منها إلى قاعة العرش ليصرّف شئون الدولة ، ووقف خاله اللورد هرتفولد إلى جانبه ، يمدّه بنصائحه الغالية.

وقضى توم الأيام الثلاثة الأول من اعتلائه عرش الملك ، فى استقبال السفراء والأعيان ، وقد جاءوا يقدّمون له التعازى عن وفاة أبيه الملك ، كما أنه رأس مجلس الوزراء ، ووافق على وصية الملك الراحل ، واشترك فى وضع نظام الجنازة ، وكان فى كلّ هذه الأمور ، وفى غيرها ، لايخالف للورد هرتفولد رأياً ، وكان طيّعاً ليّناً عازماً فى نفسه على أن يترك المقادير تجرى فى أعنّتها .

وفى اليوم الثالث من اعتلائه العرش ، بينما كان واقفاً إلى شباك حجرته ، رأى جماعة من الناس متألبين على رجل يحيط به الحرّاس ، فهفتْ نفسه إلى أن يترك القصر ، وينخرط فى سلك الزحام ، ولكنه مَلك نفسه ، وطلب من اللورد هرتفولد أن يتقصىّ له سبب ذلك الزحام ، فعلم بعد دقائق أن الجمهور محيطٌ برجل يساق إلى القتل ، فطلب إحضاره إليه فى الحال ، فأحضر فتفرّس فيه فخيِّل إليه أنه يعرفه ، وتذكر على الفور أنه رآه يوم رأس السنة يلقى بنفسه فى النهر لينقذ طفلا ، فتهلل وجه توم ، والتفت إلى عمدة القرية الذى كان يقود ذلك التعِس إلى القتل ، وسأله :

– ((ماجريمة هذا الرجل ؟)) فقال العمدة :

– ((مولاى ، إنه قتل أحد رعاياك بالسمّ ؟)) فتزعزع عطف توم

على الرجل وقال :

ـ ((هل أثبت التحقيق جرمه ؟)) فقال العمدة :

- ((نعم يامولاى ، فالأدلة على جرمه حاسمةٌ قاطعةٌ .))

فقال توم متنهداً حزيناً :

- ((إذن لقد استحق العقاب . . . خذوه . . . مسكين ! لقد كان رجلا طيب القلب . . .)) ثم استدرك وقال :

- ((أردت أن أقول : يبدو عليه أنه رجل طيب القلب . . .))

فأجهش الرجل بالبكاء ، وقال إنى رجلٌ برىء ، والأدلّة علىّ واهية ، والحكم قد صدر ، ولكنى أرجو من رحمتك أن يفنذ بى حكم الموت شنقاً.))

فدهش توم وقال :

- ((إنك لتطلب منى طلباً غريباً ، أوّلست محكوماً عليك بالشنق ؟!))

فقال :

- ((لا يامولاى ! حكم على أن أغلى حياً ! . . .)) فارتعدت فرائص توم وقال :

- ((ليكن ماتريد . . .))

ثم ألتفت إلى اللورد هرتفولد وسأله قائلا :

- ((هل الحكم الصادرعلى هذا الرجل مطابقٌ للقوانين ؟)) فقال اللورد :

- ((نعم يامولاى ، إنه عقاب من يرتكب جريمة السمّ . ففى

ألمانيا يعاقبون مزيّفى النقود بأن يغلوا فى الزيت أحياء . . .)) فقاطعه توم قائلا :

– ((كفى كفى يا لورد ، أرجو أن تعمل على إلغاء هذا القانون .))

وكان اللورد هرتفولد رجلا طيّب القلب نبيلا ، فابتهج وقال :

– ((سمعاً وطاعةً يامولاى ، وسيذكر لك التاريخ هذه المرحمة !))

وهتف هاتفٌ فى خاطر توم أن الرجل قد يكون بريئاً ، فسأل العمدة : – ((يقول هذا الرجل إن الأدلة كانت واهية ، فقل لى أنت ما تعرفه عن جريمته .)) فقال العمدة : –

((مولاى ، لقد أثبت التحقيق أن هذا الرجل دخل على مريض فى القرية ، فى نحو الساعة العاشرة صباحاً ، فما مضت ساعة على خروجه حتى مات المريض ، وهو يتقيأ .)) فقال توم :

– ((هل رآه أحد يسقى المريض السمّ ؟ وهل بدت على جسم المريضِ أعراض السم ؟)) فقال العمدة :

– ((لا يامولاى ! لم يره أحد ، ولكن الأطباء يقولون إن التقيُّؤ إذا انتهى إلى الموت كان سببه التسممّ . . . وليس هذا ياMولاى بالدليل الوحيد، فكثيرٌ من سكان القرية يؤكدون أنه مرّت يوماً ساحرة بالقرية ، وتنبأت سراًّ لبعض الناس أن المريض سيموت مسموماً ، بيد رجل غريب أسود الشعر رثّ الثياب ، وهذه الصفات تنطبق كل الانطباق على القاتل . . .))

ولقد كان لهذا الدليل وزن فى ذلك العصر الذى كانت تسوده الوساوس والخرافات ، على أن توم كان قلبه يحدثه أن الرجل برئ فقال له :

– ((هل عندك ما تدافع به عن نفسك ؟)) فقال الرجل :

– ((مولاى إنى برئ . ولكنى لم أستطع أن أثبت براءتى للمحكمة ، إذ ليس لدىّ شهود تشهد بأنى فى الساعة العاشرة ، من ذلك اليوم الذى اتهمت فيه بدسّ السمّ للمريض ، كنت فى ناحية أخرى أنقذ طفلا من الغرق . . . .))

فقاطعه توم وسأل العمدة فى جدّ واهتمام :

– ((فى أى يوم ، وفى أى ساعة ، حدثت الجريمة ؟))

فقال العمدة : – ((فى الساعة العاشرة من يوم رأس السنة ياصاحب الج . . .)) فقاطعه توم وصاح :

– ((أطلقوا صراحه . . هذا أمر الملك ! من الظلم أن يحكم على رجل بالقتل استناداً إلى أدلة واهية كهذه ! . . . .)) فتملكت الحاضرين نشوة إعجاب ، وأخذوا يتهامسون :

– ((ما هذا مخبولا . . . إنه صافى الذهن . . . ما أعجب الأسئلة التى كان يطرحها ، لقد شفى من مرضه . . . كمثل هذا فلتكن الملوك . .))

١٣
فى الغابة

بعد أن غادر هندن الفندق انطلق يبحث فى أكثر أنحاء المدينة عن الفتى وخاطفه ، فاجتاز الأحياء الخالية ، والأحياء المزدحمة ، يسأل الناس عنهما ، لعله يهتدى إلى أثرهما ، فلم يظفر بطائل ، وانقضَى النهار كلّه على غير جدوَى . وكان التعب والجوع قد نالا منه منالهما ، فدخل أحد الفنادق يستريح إلى الصباح ، ثم يستأنف بحثه .

وقبل أن يستسلم إلى الرّقاد ، كان يفكّر فى الخطّة التى سيسير عليها فى اليوم التالى ؛ وكان يناجى نفسه ويقول : لقد بحثتُ عنه فى المدينة فلم أجده ، وليس من المعقول أن أجده فيها ، لأنه سيحاول حتماً الفرار من ذلك الذى يدّعى أنه أبوه ، فإذا هرب منه فسوف يأتى إلىّ لا محالة ، فهو ولد طريدٌ شريدٌ ، ولقد أخبرته أنى ذاهب إلى مقاطعة هندن ، حيث أملاك أسرتى ، وربما كان الآن قد سبقنى إليها .

وارتاح هندن إلى هذا الاستنتاج ونام نوماً عميقاً.

أما الأمير فإنه سار هو والشاب الذى جاء يدعوه إلى لقاء هندن ، حتى تجاوزا المدينة ، ووصلا إلى غابة من الغابات ، وكان جون كانتى ،

وهو الذى أرسل الشاب ليحتال على الفتى ويستدرجه إليه ، يتبعهما عن كثب ، وهو يعرج متوكئاً على عكاز ، وكانت عينه اليسرى معصوبة ، وإحدى يديه ملفوفة فى منديل رُبِطَ إلى عنقه . ولما طال على الأمير المسير وقف مغضباً وقال :

– ((ليس للملك أن يذهب إلى لقاء أحد رعاياه ، فلن أخطو خطوةً واحدةً بعد هذا .)) فقال له الشاب :

– ((أيطاوعك قلبك أن تظلَّ هنا فى مكانك ، وصديقك جريح يلفظ أنفاسه هناك فى طرف الغابة ؟)) فقال الأمير :

– ((أجريح هو ؟ ! ومن تجرّأ على جرحه ؟ ! هيّا هيّا أسرع . . مالك تسير مبطئاً ؟ هل ربطتَ ساقيك بالرصاص ؟ . .))

وما هى إلى دقائق حتى انتهيا إلى طرف الغابة . فلمح الأمير أغصاناً مغروسةً فى الأرض . وإلى جانبها كوخ متهدّمٌ ، فدخله مسرعاً ، وأجال طرفه فيه فلم يجد أحداً . فتسرّب الجزَع إلى قلبه ، فسأله مرافقه :

– ((أين هو ؟))

فكان جواب هذا ضحكة عالية ، فانقضّ الأمير عليه يريد أن يؤدّبه على وقاحته ، فوقفته ضحكة أخرى من الرجل الأعرج ، فقال الأمير :

– ((من أنت ؟ وماذا تعمل هنا ؟)) فقال الرجل الأعرج :

– ((دع عنكِ الجنون ، فلستَ من التنكر بحيث لاتعرف أباك))

فقال الأمير :

– ((لستَ أبى ولا أعرفك ، أنا الملك ، فإن كنت قد خبأت تابعى فائتى به ، إلا كلفك عصيانك غالياً !))

فقال جون كانتى بصوت قاسٍ رزين :

– ((مامن شكٍّ فى أنك مخبول العقل ، ويعزّ علىّ أعاقبك ، ولكن حذارِ أن تستفزّنى . أما خرافاتك فلا تضرّنا ، فليس هنا من يسمعك ، ولكن يستحسن أن تعود لسانك كلاماً غير هذا ، واعلم أننا لن نود إلى حيّنا، فقد قتلتُ رجلا ، والعدالة تطاردنى . . . واعلم أيضاً أنى غيرت أسمى، فأنا أدعىَ الآن جون هوبس ، وأنت تدعىَ جاك . . . أين أمك ، وأين شقيقتاك ؟ لماذا لم يحضرن فى الموعد المضروب ؟ أتعرف إلى أين ذهبن ؟))
فقال الأمير :

– ((لاتحاول أن تخدعنى بهذه المعميَّات . . . امى ميته ، و . . .))
فضحك الشاب الذى جاء به ضحكةً عاليةً ، فأسكته جون جانتى ، أو جون هوبس وقال :

– ((اسكت ياهوغو لا تهجه ، فقد طار لبه ، وضحكك يزيده هياجاً... اجلس ياجاك وسكن روعك ، فإن كنت جائعاً فعماً قليل تأكل))

ثم انشغل هوبس وهوغو بالحديث ، وتركا الفتى لشأنه ، فمشى فى أطراف الكوخ ، ووجد فى نهايته تلاًّ من القشْ فتمدّد عليه ، وعرضت

له صور محنه وصائبه ، فاضمحلّت أمام فجيعته بأبيه .

ثم غلب عليه التعب والجوع بعد قليل ، فنام إلى المساء . ولما أفاق أعمل ذهنه فيما حوله ، فلم يدر أين هو ، فنهض وتذكر ماكان من أمره ، فطرق مسمعه صراخٌ وضحك ، فخرج من الكوخ ، وإذا به يرى ناراً مشعلة ، وحولها جماعة من الأوباش ، بين رجال ونساء ، فيهم الأعمى المعصوب العينين ، والأعرج المربوط الرجل ، والأبرص المشوّه الوجه.

وكانوا قد فرغوا من طعامهم ، ولا تزال جرّة الخمر تدور عليهم من فم إلى فم ، وفجأة علا صياحهم قائلين :

- ((هيا ياديك أنشدنا بعض أناشيدك . . .))

فنهض أحد العميان ، ونزع العصابة عن عينيه ، فبدت له عينان كعيني الصقر ، وتبعه الأعرج ، فنزع اللفافة عن رجله ، ومشى إلى رفيقة مشيةً سليمة ، ورفعا معاً صوتهما المنكر يغنيان ، بل يخوران .

وكانت هذه العصابة من اللصوص المجرمين آمنة على نفسها فى هذا المكان ، ولذلك لم تكن تتحدّث بلغة اللصوص ، ودارت الأحاديث بين هؤلاء المتسامرين ، فقص كل واحد منهم على هوبس أعماله ومغامراته ، وتناول الحديث عضوٌ جديد فى العصابة فقال :

- ((كانت أمى تخدم المرضى ، فمات مريض منهم ، فاتهمها الأطباء بالسحر والشعوذة فأحرقت . . . هذه هى القوانين الإنجليزية ، كان نصيبى أنا أن أباع بيع العبيد ، فهربت من سيدى ولو قبض



عليّ الآن . . . هذه هي القوانين الإنجليزية .))

ولم يكد يتم حديثه حتى سمع القوم صوتاً واضحاً رناناً يقول :

- ((لن تشنق ، فقد ألغى هذا القانون منذ الآن . . .))

فالتفت الحاضرون إلى مصدر الصوت ، فرأوا فتى يقترب منهم ، فانهالت الأسئلة من كل جانب :

- ((من أين جاء هذا الفتى ؟ ومن يكون ؟

فوقف الفتى وسط هذه الجماعة المدهوشة ، وقال فى عظمة وإباء :



- ((أنا إدورد ملك إنجلترا))

فتعالى الضحك والاستهزاء ، واستاء الملك وقال :

- ((أبمثل هذا تقابلون المعروف الذى وعدتكم به يا قليلى الأدب !))

فعاد القوم إلى الضحك والضجيج ، وتمكن هوبس بعد جهد من أن يقول لهم: - ((أيها الرفاق ! هذا ولدى ، وهو مخبول العقل ، فلا تعيروا كلامه اهتماماً . . . فهو يعتقد أنه الملك .))

فصاح إدورد فى هوبس :

- ((أنا الملك ، وستعرف ذلك منى حان الوقت . . . لقد اعترفت

بأنك قاتل . . . ولسوف تشنق . . .))

فقال هوبس :

- ((ستخونني ياوغد . . . سأعلمك كيف . . .)) فأمسك رئيس العصابة بهوبس ، وصفعه صفعةً طرحته أرضاً وقال :

- ((أنت لا تحترم الملوك ولا الرؤساء ، فإذا اعتديت على سلطتى مرة أخرى فسوف اشنقكك أنا . . . أما أنت يافتى فإياك أن تهدّد رفقاءك . . . وإذا حلا لك أن تكون ملكاً فلا بأس ، ولكن حاذر من اللعب بالنار . . . قد نكون قوماً مجردين من الفضائل ، ولكننا مخلصون للملك . . . . قولوا معى جميعاً : عاش إدورد ملك إنجلترا .)) فهتفوا : ((عاش إدورد ملك إنجلترا)) .

فابتهج خاطر الملك لهذا الهتاف فقال:

- ((أشكرك ياشعبى العزيز .))

فلم يتمالك القوم أنفسهم عن الضحك والسخرية ، فبكى إدورد تودور وقال فى نفسه :

- ((ما أقسى هؤلاء الناس . يسيئون معاملتى وأنا لا أنوى لهم إلا الخير .))



١٤

مع العصابة

قضت العصابة ليلتها فى لهو ومرَح ، ثم جدّت عند الفجر فى المسير ، وكان الزغيم قد أوصى هوغو أن يعنى بالفتى ، وأن يحسن معاملته .

وفى أثناء مسيرها كانت تسطو على مايقع تحت يدها من ملابس مغسولة منشورة ، وأصحابها يرون ذلك صاغرين خائفين . واجتاز هؤلاء اللصوص بمزرعة من المزارع ، فقلبوها رأساً على عقب ، وفرضوا على أصحابها تقديم الطعام لهم ، فأكلوا وشبعوا ومسحوا أيديهم الملوّثة بالدهن ومَرَق الطعام ، برأس صاحب المزرعة ورؤوس زوجته وبناته ، ورحلوا عنه وهم يتوعدونه بإحراق المزرعة إذا هو شكاهم إلى رجال الحكومة .

وحوالى الظهر ، وصلتْ هذه القافلة الجهنمية إلى ضاحية من الضواحى ، فأمرها الزعيم يالوقوف ، ومنح أعضاءها عطلة ساعة ينصرف فيها كل إلى شأنه ، على أن يعودوا فى الموعد المحدد ، فنفروا نفار الوحوش ، وتوغلوا فى تلك الضاحية ، وكلٌّ يأمل أن يجرّ منها الغنائم .

ومشى هوغو ومعه الفتى ، فلم يقع على شئ يسرقه ، فقال له :

– ((أرى أننا سنعود صفر اليدين ، فلنمدّ أيدينا بالسؤال .)) فقال الفتى :

– ((هذه مهنةٌ جديرة بك ، أما أنا فلا أتسوّل .)) فقال هوغو :

– ((ألم تتسوّل طول حياتك فى ازقة لندن ؟)) فقال الفتى :

– ((أنا ؟ أيها الوقح !)) فقال هوغو :

– ((والدك هو الذى أعلن عن مهنتك . . . ولا أظن الوقاحة تصل بك إلى تكذيبه .)) فقال الفتى :

– ((هذا الرجل ليس والدى ، وإنه لكذّاب .)) فقال هوغو :

– ((إذا كنت لاتريد التسول أفتريد أن نسطو على المطابخ ، وتسرق منها الدّجاج واللحم المقدّد ؟)) فقال الفتى :

– ((لا شأن لى فيما يفعله لصّ حقير مثلك))

فاستولى على هوغو الغضب ، وكاد يهوى بقبضته على رأس الفتى، لولا أنه تّكر وصية الزعيم يالرفق به ، فكتم غيظه وعزم على أن يوقعه فى شرَك داهيةٍ من الدواهى ؛ فتابعا السير من حارة إلى أخرى ، حتى رأى هوغو امرأة تسير أمامها حاملةً صُرةَ فى سلة ، فتقدّم منها وغافلها ، ورفع الصرّة ورمى بها إلى الفتى ، وتوارى هو فى منعطف من المنعطفات ، وأحسنت المرأة أن سلتها قد خف حملها ، فالتفتت تبحث عن السبب ، فلمحت الفتى يرمى بصرّتها من يديه ، فأمسكته من ذراعه وهو تشتمه



وتلعنه ، وعبثاً حاول أن يفلت منها ، ويقنعها بأنه ليس سارق صرّتها ، فأبت إلا أن تسلّمه إلى الشرطة .

وكان الناس قد تجمهروا عليها حانقين على الفتى ، ورفع أحدهم يده يريد أن يسبق العدالة إلى تأديب هذا اللص المزعوم ، فما شعر إلا وسيفٌ طويلٌ يحول بينه وبين الفتى ، وصوت ساخر يقول : — ((على رِسْلكم ياقوم . . . المسألة تخصّ عدالة الحكومة لا عدالة الشوارع . خلى عن الفتى ياسيدتى . . .)) فنظر المتجمهرون إلى ذلك الرجل القوىّ الضخم ، وإلى سيفه الطويل ، نظرة حذر ودهشة ، فلم يتحركوا وزادت دهشتهم عند ما رأوا الفتى يصيح وهو متهلل الوجه قائلا : — ((آه، لقد تأخرت ياسير مايلز هندن ، ولكنك جئت فى الوقت المناسب . .. مزّق بسيفك هؤلاء الناس . . .))

١٥

فى الطريق إلى السجن

تبسم هندن عند سماعه هذه الكلمات ، وانحنى على الملك ، وأسرّ إليه فى أذنه :

- ((لا تتورّط فى الكلام يامولاى . . . شرفنى بثقتك ، ودعنى أعالج الأمر . .))

وكان الشرطىّ قد حضر وهو يشقّ الطريق وسط الزحام ، فأمسك بكتف الملك ، وقال هندن :

- ((لا حاجة بك إلى العنف ياصديقى ، فسوف يسير معك من تلقاء نفسه ، وأنا الكفيل بذلك .))

فمشى الشرطى وإلى جانبه المرأة ، وتبعه هندن والملك ووراءهما جمهورالمتطفلين ، وهمّ الملك أن يحتجّ ويتمرد ، فمال هندن عليه وقال :

- ((تذكّر يامولاى أن القوانين عى معَقْدة إرادة الملك السنية ، فهل يحقّ للملك أن يتملص من القوانين التى يفرضها على شعبه ؟)) فقال الفتى :

- ((الحقّ فى جانبك ياسير مايلز ، وإنى لأعرف كيف أبرهن



الشعبى أن ملك أنجلترا هو أول من يخضع للقوانين التى يفرضها على الشعب .))

وصل الموكب إلى قاضى التحقيق، فسمع هذا شكوى المرأة ، ولم يتقدم إليه أحد من شهيد النفى ، ثم فتحت المرأة الصرة لِتُرىَ القاضى ماتحتوى ، فإذا فيها خِنَّوْص ، فاصفرّ القاضى وهندن معاً ، أما الملك فلم يقدّر عاقبة التهمة ، فكان لا يبالى بكل مايجرى حوله .

وصمت القاضى يفكر تفكيراً عميقاً، ثم خاطب المرأة وقال :

- ((بكم تقّرين الخنزير المسروق ؟))

- ((بثلاث شلنات وثمانية بنسات ياسيدى القاضى .))

فتردّد القاضى متحيراً ، ثم أمر الشرطى أن يخلى الغرفة من الناس ، إلا من أصحاب الشأن ، ويقفل الأبواب ، فلما تم له ذلك وَجَّه كلامه إلى المرأة فى رقة ولطف وقال :

(١) الخنوص : ولد الخنزير

– ((يبدو على هذا الفتى أنه طفل جاهل . . . وربما كان جائعاً عندما أقدم على فعلته ، فإننا نجتاز أياماً عصيبة . . فانظرى إليه فما فى وجهه دلائل الشر . . . أوَلا تعرفين ياسيدتى أن من يسرق متاعاً تزيد قيمته على ثلاثة عشر بنساً وبصف بنس يكون جزاؤه الشنق ؟))

فارتعد الملك ولكنه تجلد ، ووثبت المرأة ناهضة من كرسيها وصاحت :

– ((آه ياربى ! ماذا فعلت ؟ لا أريد أن أكون السبب فى موت هذا الصبى . . . أرجوك ياسيدى أن تحول دون هذه المصيبة .))

فقال القاضى فى صوت حازم خطير : – ((من حقك أيتها السيدة أن تصححى تقديرك مادمنا لم نكتب شيئاً فى المحضر .))

فقالت المرأة :

– ((بحق السماء اكتب ثمانية بنسات وارح ضميرى من العذاب .))

فكاد هندن يطير من الفرح .

وانسحبت المرأة هانئة سعيدة ، وجلس القاضى يكتب تقريره ، ولاحظ هندن أن الشرطىّ قد لحق بالمرأة ، فداخلته الوساوس ، فتبعهما متلصّصاً إلى رواق مظلم ، فسمع الحديث الآتى ، وقد بدأه الشرطى فقال :

– ((إن خنزيرك سمين ، فإليك ثمانية بنسات ثمناً له . فقالت المرأة:– ((ثمانية بنسات ؟ ! إنك تهزأ بى .)) فقال الشرطى :

– ((طيب ، إنك أعلنت للقاضى أن ثمنه ثمانية بنسات ، فتعالى معى إليه لتجيبى عن تهمة شهادة الزور ، فلسوف تشنقين أنت والصبى .))

فاضطربت المرأة ومدت إليه يدها بالخنزير وقالت خائفة :

- ((خذه وأعطنى البنسات الثمانية ، ولاتقل شيئاً للقاضى .))

فأخذه الشرطى ووضعه فى مكان أمين ، وانصرفت المرأة وهى تبكى ، وعاد الشرطى إلى غرفة التحقيق ، وكان هندن قد سبقه إليها .

ولما فرغ القاضى من كتابة تقريره ، وجه للصبى غالى النصح ، وحكم عليه بالسجن بضعة أيام وبالجلد علناً ، فاشمأز الملك ، ولكن هندن تأبّط ذراعه وسار معه وراء الشرطى إلى السجن ، وهمس فى أذنه :

- ((لا تخف يامولاىّ ، شرّفنى بثقتك واعتمد علىّ فى إنقاذك .))



١٦
الهرب

كان الظلام قد بدأ يهبط رويداً رويداً ، والشوارع قد بدأت تخلو من المارّة ، وتلك القافلة الصغيرة تجدّ فى سيرها إلى السجن .

وما إن اقتربت من مكان قفر ، حتى لمس هندن كتف الشرطيّ وقال :

- ((عذراً ياسيدى فلى كلمة أقولها لك . . .)) فقال الشرطى :

- ((إن واجبى يحول دون سماعها .)) فقال هندن

- ((المسألة تتعلق بك ياسيدى . . . فأدر ظهرك قليلا وانظر إلى السماء ليتمكن هذا الصبىّ من الهرب .)) فقال الشرطى :

- ((أعلىّ تعرض هذا الأمر ؟ ! باسم القانون ألقى القبض عليك !)) فقال هندن :

- ((هدّئ من روعك ياسيدى ، واذكر أن الخنزير الذى اشتريته بثمانية بنسات قد يؤدى بك إلى التهلكة !))

و أعاد عليه الحديث الذى دار بينه وبين المرأة ، فقال الشرطى متظاهراً بعدم الاكتراث :

- ((إنك تخلق من الحبة قبة ، فما قصدت إلا أن أمازح تلك

المرأة .)) فقال هندن :

- ((إذن انتظرنى هنا حتى أعود ، فسأذهب إلى القاضى وأروى له الخبر ، وهو حقيق أن يفرّق بين الجدّ والمزاح .)) فقال الشرطى :

- ((على رِسلْك ، فإن القاضى لايعرف المزاح . . . لا مانع عندى من أن نسوى المسألةَ بيننا . . . ولكن كن رجلا معقولا فإنى رب أسرة كبيرة ، فماذا تريد منى ؟)) فقال هندن :

- ((أريد منك أن تكوت أعمى لحظة قصيرة ، فلا ترى إلى أين يتجه هذا الفتى .)) فقال الشرطى :

- ((إنك تريد إذن هلاكى .)) فقال هندن :

- ((أما استغللت سلطة وظيفتك ، لتحصل بثمن بخس على متاع يساوى أكثر من ثلاثة عشر بنساً ونصف بنس ؟ . . .)) فقال الشرطى :

- ((ناشدتك الله إلا رحمتنى . . . سأدير ظهرى وأغمض عينّى أصم أذنىّ . . . سأقول إنك اقتحمت باب السجن لتنفذ المجرم . . . إنه بابٌ قديم بال وسأحطمه الليلة . . .)) فقال هندن :

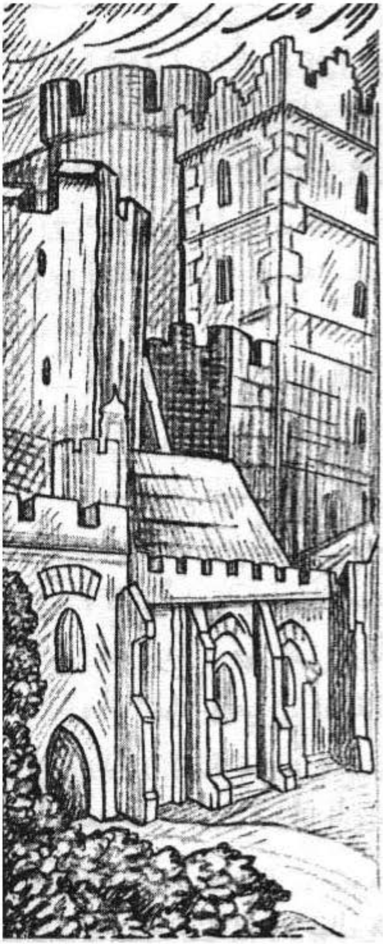
- ((حسناً تفعل . . . ولن يمسّك القاضى بأذًى ، فقد شعرتُ أنه كان يتمنى أن ينجوَ الفتى بوسيلة من الوسائل .))

١٧
فى مقاطعة هندن

ابتعد هندن والملك على عجل ، ولما أمن هندن على نفسه وعلى الملك غائلة الشرطىّ ، ذهبا معاً إلى الفندق الذى نزل به هندن فى تلك الضاحية ، فدفع الأجرة وألبس الملك البذلة التى كان قد اشتراها له ، ثم ابتاع حمارين ركب كل منهما حماراً ، وتوجها إلى مقاطعة هندن .

ولم يشأ هندن أن يثقل على الفتى بوطأة السفر ، فكانا يبيتان كل ليلة فى فندق من فنادق القرى التى كانت فى طريقهما ، وعاد هندن إلى القيام بما يقوم بع تابع الملك ، فكان يخدمه إذا جلس إلى المائدة ، ويخلع عنه ملابسه ، ويلبسه ، ويلبسه إياها ، ويحرسه عند نومه .

وروى كل منهما للآخر مامرّ به من أحداث ، فعرف الملك أن هندن لم يترك إنساً لا جناًّ إلا سأله عنه ، حتى وصل إلى العثور عليه ؛ وقضيا فى هذا السفر عدّة أيام إلى أن أشرفا على مقاطعة هندن . وكان هندن على حال من الغبطة والفرح لاتوصف ، فكان يسرد على مسامع الملك أخبار طفولته وشبابه فى هذه الديار ، ويكاد يطير من الحبور كلما تكلم عن ابنة عمه ((أديث)) وهو يعلل النفس بقرب لقائها .



وصل المسافران إلى قصر هندن عند الأصيل ، فترجلا ، وقال هندن للملك :

- ((أهلاً وسهلا بمولاى . . . إنه لشرف عظيم يامولاى أن نتفضل بالنزول بدار أحد رعاياك ، على أنى ألتمس منك ياصاحب الجلالة أن تُغضِي الطرف عما يبدو لك من تقصير فى استقبالك، فقد ينشغل أهلى فرحين بلقائى بعد غياب طويل ، عن واجب الترحيب بضيف عظيم مثلك يامولاى . .))

واجتاز به الحديقة ، وصحبه إلى داخل القصر ، فمراّ على بعض الغرف والأورقة ، ووصلا إلى قاعة فسيحة ، رأيا فى ركن من أركانها موقداً تستعر فيه النيران ، وإلى جانبه رجل جالس إلى منضدة وهو يكتب ، فقدّم هندن

للملك مقعداً وأسرع نحو الرجل قائلا :

- ((هيوز ! ها أنا ذا عدت بعد غيبتى الطويلة . . . ما أسعدنى بلقائك . . قم أقبّلك وأعانقك . . . أين أبى ؟ إنى جدّ مشتاق إليه .))

فنهض هيوز وقد ارتسمت على محياه الدهشة ، فقال فى هدوء :

- ((يلوح عليك التأثر أيها الغريب ، فلا بدّ أنك تحملت من العذاب أصنافاً تدلّ عليها ملابسك ووجهك . . . فمن تظننى يارجل ؟))

فقال هندن :

- ((من أظنك ؟ وما شأن الظنّ هنا ؟ أنت أخى هيوز هندن . . .))

فقال هيوز :

- ((ومن تزعم نفسك ؟)) فقال هندن :

- ((أتريد أن تزعم أنك لاتعرف أخاك مايلز ؟)) فقال هيوز :

((لا تهزأ بى يارجل فالأموات لايحيون . . . فإن كنت مازحاً فعدّ عن هذا المزاح ، فهو ثقيل الوطأة . . .)) فقال هندِن :

- ((أنا أخوك ياهيوز !)) فقال هيوز :

- ((ليت السماء تستمع لك . . . ولعل غيرى ممن فى هذا المنزل يعرف أنكَ مايلز . . . أما أنا فأرى أن الرسالة قد ذكرت الحقيقة . . .))

فقال هندن :

- ((أىّ رسالة تلك ؟)) فقال هيوز :

- ((الرسالة التى تسلمناها من وراء البحار منذ سبع سنوات ،

فأخبرتنا بموت أخى فى ساحة القتال .)) فقال هندن :

– ((إنها رسالة مزوّرة . . ناد أباك فهو لاشكّ يعرفنى . . .))

فقال هيوز :

– ((أبى –رحمة الله عليه – قد مات منذ مدة طويلة .))

فقال هندن :

– ((واحسرتاه عليك ياأبى ! ماكنت أتوقع أن أفاجأ بهذا النبأ الأليم عند عودتى . . . ادعُ إذن أخى أرثر ، فمن الحال أن يكون قد نسينى .))

فقالهيوز :

– ((أرثر قد توفى أيضاً !)) فقال هندن :

– ((ياإلهى ! ماهذه المصائب المتوالية . . . واللادى أديث ابنة عمنا ، كيف حالها ؟)) فقال هيوز :

– ((إنها على قيد الحياة .)) فقال هندن :

– ((بالله عليك أسرع وادْعُها ، فهى لا محالة تعرفنى ، وادعُ معها الخدم القدماء .)) فقال هيوز :

((لم يبق منهم إلا خمسة . . .)) وسمّاهم له .

ونهض هيوز عند ذلك ، وغادر القاعة . أما مايلز فاستسلم إلى التفكير العميق ، وناجى نفسه قائلا :

– ((هؤلاء الخمسة السفلاء يحيون ، والاثنان والعشرون الآخرون يموتون ؟ ! وما كان فيهم إلا كل أمين وفىّ ؟ إن هذا لأمر غريب !))

ومن الطبيعى أن تشغل هذه المصائب مايلز عن الملك ، فقال له هذا

فى لطف ورقة :

- ((لاتستسلم للحزن ياسير مايلز ، فلست الوحيد فى نكران الناس إياك .))

فخجل مايلز من موقفه وقال :

- ((لا تتهمنى يامولاى ، فسوف تسمع من أجمل شفتين فى إنجلترا أنى أنا مايلز هندن . ويعزّ علىّ إذا كذبنى جميع الناس ألاتصدقنى أنت يامولاى . . . لا تتسرع فى الحكم علىّ ، فلست بالرجل المنافق الدجال.))

فقال الملك :

- ((ما شككت قط فيك ياسير مايلز .)) فقال هندن :

- ((أشكرك يامولاى . . .)) فقال الملك :

- ((وأنت هل تشكّ فىّ ؟))

فتحير مايلز فى الجواب ، وحال دون جوابه دخول هيوز ، ومعه سيدة جميلة أنيقة ، وكانت تسير مطرقة الرأس ، ووراءها الخدم ، فجرى إليها مايلز وصاح :

- ((أديث ، ياعزيزتى أديث . . .))

فاعترضهما هيوز وقال للسيدة :

- ((انظرى إليه جيداً . . . حدقى النظر فيه طويلا . . .

هل تعرفينه ؟))

وكانت السيدة عند سماعها صوت مايلز ، قد ارتجفت مفاصلها ،



واحمرّ خدّاها ، فبقيت هنيقة جامدة في مكانها لا تتحرك ، ثم رفعت رأسها وحدّقت في مايلز مضطربة خائفة ، فاصفرّ وجهها اصفرار الأموات ، وقالت بصوت مخنوق :

– ((لا أعرفه . . .))

وعادت من حيث أتت ، وهي تتنهد وتكاد تقع مغشياً عليها ، وسقط مايلز على أحد المقاعد ، وغطى وجهه براحتيه ، وسأل أخوه الخدم :

– ((لقد رأيتموه ، فهل عرفتموه ؟))
فهزّوا كلهم رؤوسهم سلباً ، فاقترب هيوز عندئذ من مايلز وقال :
– ((ما أظنك إلا مخطئاً ياصاح ، فلا أنا أعرفك ولا خدمى ولا زوجتى . . .)) فصاح هندن :
– ((زوجتك ؟ !)) صاح مايلز بهذه الكلمة ، وهجم على هيوز ، وأمسك بخناقه وألصقه بالحائط ، وهو يقول له :
– ((ياوغد ! ياخائن ! ياقاتل ! لقد انجلبت الحقيقة لعينىّ ، فأنت الذى كتبت تلك الرسالة المزورة ، لتسلبنى خطيبتى ونصيبى فى الميراث ، فالويل لك ، اغرب عن وجهى لكيلا ألوث يدى الطاهرة بدمك النجس .))
قال هذا ورمى به إلى الأرض ، فنهض هيوز وأمر رجاله بالقبض على هذا الغريب الوقح ، فترددوا ، وقال أحدهم :
– ((إن معه سيفه ، أما نحن فلا سلاح معنا .)) فقال هيوز :
– ((ولكنكم عشرة . . . اهجموا عليه ! . . .))
فاستند مايلز إلى الحائط واستلّ سيفه وقال :
– ((ألم تعرفونى أيها الأوغاد ؟ اقتربوا إن كان عندكم ذرّة الشجاعة . . . إنكم تذكرون ضرباتى .))
فلم يتحرك منهم أحد ، فصاح فيهم هيوز :
– ((اذهبوا وعودوا بسلاحكم . . . أنا ذاهب أيضاً أدعوا الحراس ،

وقبل أن يخرج من الغرفة قال مايلز :

- ((لاتحاول الهرب فيزداد جرمك ثقلا .)) فقال هندن :

- ((اطمئن بالا ، فمايلز هندن لن يهرب ، فهو المالك الشرعي لهذه المقاطعة ولكل مافيها وسيبقى .))



١٨
النكران

لم يبد الملك حراكاً طيلة ذاك الجدال ، ولا انقطع عن التفكير .

فلما بقى هو وهندن وحدهما فى القاعة قال له :

– ((إنه لأمر عجيب غريب لم أتوصل إلى إدراك كهنه !)) فقال هندن :

– ((ليس فى المسألة غرابة يامولاى . . . إنه خائن سافل . . . إنه هو هو كما عرفته .)) فقال الملك :

– ((لم أقصده فى كلامى ياسير مايلز)) فقال هندن :

– ((فمن إذن قصدت ؟ وأى غرابة رأيت ؟)) فقال الملك :

– ((ألآ يقلق الناس لغياب الملك .)) فقال هندن باسماً :

– ((هذا هو الحق يامولاى ، غير أن همومى أنستنى إياه .)) ثم قال فى نفسه :

– ((واحسرتاه عليك يافتى ، إن جنونك يطاردك جينما كنت .)) فقال الملك :

– ((وجدت حلاً سينفذنا نحن الاثنين ، سأكتب رسالة بلغات

ثلاث : باللاتينية واليونانية والإنجليزية ، فعليك فى صباح غد أن تذهب بها إلى لندن ، فلا تسلمها إلا إلى خالى اللورد هرتفولد ، فهو يعرف خطى ، ولسوف يسارع إلى إنقاذى .)) فقال هندن :

– ((ألا تستحسن يامولاى أن أبدأ بنفسى ، فأتسلم أملاكى ثم . . .))

فقال الملك :

– ((اسكت ياسير مايلز . . . ماذا تكون أملاكك الحقيرة إلى جانب إنقاذ العرش وسلامة شعب بأسره ؟ !))

وكأنما ندم على غلطته فقال فى رقة :

– ((لاتخشَ بأساً ، أطعنى تنل من العدالة حقك ، ومن الملك مكافأتك .))

وجلس على المنضدة وشرع يكتب ، فنظر إليه مايلز وهو يقول فى نفسه :

– ((لو لم ألقه شقياً بائساً ماشككت إلا أنه ملك يخاطبنى ، فأين تعلم هذه اللهجة التى يصدر بها أوامره !)) وكان الملك قد فرغ من كتابة الرسالة ، فدسها هندن فى جيبه غير مكترث ، فقد كان يفكر فى أديث ، ويخاطب نفسه قائلا :

– ((ماأغرب سلوكها ، كان يلوح عليها أنها عرفتنى ، فكيف إذن أنكرتنى ؟ . . . لله ما أغبانى ، كيف لم أكشف هذا السر لأول وهلة . . لقد كانت صفراء كالأموات ، مرتجفة كورق الشجر ، فلا شكّ أنه هو الذى هدّدها وحملها على النكران . . . لابدّ لى أن ألقاها وحدها ،

فإنها ما كذبت قطّ فى حياتها . . .))

ومشى إلى الباب ، فإذا به ينفتح ، وتدخل منه اللادى أديث ، فيجرى إليها متلهفاً ، فتقفه بإشارة نبيلة وتقول له :

- ((ياسيدى إن حياتك فى خطر ، فاهرب قبل فوات الأوان ؛ وسواء كنت مايلز هندن ، أم رجلا آخر قد اختلس اسمه ، فزوجى سوف ينكرك ؛ ولن تجد أحداً يدفع عنك شرّة وفظاظته .)) فقال هندن :

- ((يسوءنى جداً أن أرى سيدة شريفة ، قضيت معها طفولتى وشبابى ، تشارك ذلك المجرم فى إجرامه .))

فاحمر وجه اللادى أديث وقالت :

- ((أكرر عليك النصيحة بأن تهرب وتنُقذ حياتك . . . إن مزاعمك تهدّد زوجى فى لقبه وأملاكه ، فإن بقيت هنا فأنت هالك لامحالة . . . وإن كنت فى حاجة إلى نقود ، فأرجو أن تقبل منى هذه الصرّة .))

فردّ مايلز الصرة وقال :

- ((أتوسل إليك أن تحدّقى فىّ وتقولى : هل أنا مايلز هندن ؟)) فقالت السيدة :

- ((اهرب قبل فوات الأوان .)) ودخل حراس هيوز إلى الغرفة ، ونشبت فيها معركة عنيفة انتهت بتغلب العدد على الشجاعة ، فقُيد هندن والملك وزُجّا فى السجن .

١٩
من السجن إلى لندن

كانت غرف السجن كلها مشغولة ، فوضع هندن والملك فى غرفة فسيحة تعجّ بنحو عشرين نفراً ، بين رجال ونساء ، وكلهم تعضّ على أيديهم أرجلهم قيود الحديد .

ومرت الأيام ثقيلة الوطأة على نفس هذين السجينين ، وضاقت الدنيا فى عين هندن ، ووازن بين ما كان يتوقعه من حسن الاستقبال ، وبين سؤ المعاملة التى لقيها ؛ ولم تقف سؤ المعاملة عند هذا الحدّ ، بل كان يدخل السجن فى كل يوم رهطٌ من الأوباش ، يبعث بهم هيوز إلى أخيه ، ويوصيهم بأن ينكروه إذا أراد التعرف إليهم ؛ فكانوا يقابلونه بالازدراء والشتائم ، إلى أن أقبل يوماً شيخ طاعن فى السن فعرفه هندن ، لأنه كان أحد خدم القصر القدماء ، ولكنه دهش أشد الدهش عند ماسمعه ينكره ، ويكيل له السبب ، وأكثر الشيخ من زيارة هندن فى السجن ، وفى كل مرة كان ينتحل عذراً ، ويقول إنه يريد أن يكشف النقاب عن هذا الأفاك ، فاستطاع فى خلال هذه الزيارات ، أن يهمس مرة فى أذن هندن أنه قد عرفه ، فهو ابن سيده القديم ، غير أن إعلان

ذلك يضرّه ولا ينفعه .

وعرف هندن من هذا الشيخ أن أخاه الأكبر أرثر قد مات منذ ست سنوات ، فضعضع موته صحة أبيه ، وزادتها ضعفاً تلك الرسالة التى وردت إليه تخبره بموت مايلز ، فقرّر أن يزفّ أديث إلى هيوز ، فمانعت وعارضت ، وأجلت وسوّفت ، ولكنها انتهت إلى القبول ، إذ لم تجد منه بداً . وعرف هندن من الشيخ أيضاً أن الناس ، فى جميع أنحاء المقاطعه ، يقولون إن اللادى أديث غير سعيدة ، وأنها عثرت يوماً على مسودة تلك الرسالة التى نَعَتْ مايلز إلى الأسرة ، فعرفت أن هيوز هو مرتكب ذلك التزوير . . .

وجاءهما ذلك الشيخ يوماً بخبر استرعى انتباه الملك ، فقد قال :

- ((شاع بين الناس أن الملك قد فَقَدَ العقل . . . ولكن حذار أن تردّدا هذا الخبر ، فإن عقوبته الموت .)) فاضطرب الملك وقال :

- ((الملك لم يفقد العقل ، أيها الشيخ ، ونصيحتى لك ألا تتدخل فيما لايعنيك ، فتسوء مصيراً .))

فأشار هندن إلى الشيخ إشارة خفيفة ، غير أن الشيخ لم يحفل بالفتى وتابع حديثه :

- ((سيحتفل بعد أيام قليلة بدفن الملك الراحل ، وبعد الدفن رأربعة أيام يحتفل بتتويج الملك الشابّ ، وسيشهد هيوز الاحتفال ، ويطمع فى أن ينال لقب اللوردية ، فإن له صلة وطيدة برائد الملك .))



فانتفض الملك وقال :

- ((ومن يكون رائد الملك ؟)) فقال الشيخ :

- ((اللورد هرتفولد الذى خلع عليه الملك دوقية " سومرست " .)) فقال الملك :

- ((الملك ؟ أى ملك ؟)) فقال الشيخ :

- ((الملك الشابّ ، صاحب الجلالة إدورد السادس ، حمفظ الله شبابه . وسواء أكان عاقلا أم مجنوناً ، فقد استهلّ ملكه بآيات من الرحمة والحنان : عفا عن مارشال الدولة ، وألغى كثيراً من القوانين الصارمة)) .

وقعت هذه الأنباء على سمع الملك الشاب وقوع الصّاعقة ، فاضطرب وغلى الدم فى عروقه ، وفكر من يكون ذلك الملك الشاب ؟ أتراه ذلك الفتى الشريد الذى بادله ثيابه ؟ أم فتى آخر من السلالة الملكية ؟ ولكن لا . . . فخاله هرتفولد لن يرضى به بديلا . . .

وفى صباح اليوم التالى جاء الحراس وأخرجوا المسجونين إلى ساحة السجن ، فسرّ الملك من هذه النزهة التى سيستنشق فيها قليلا من الهواء ، وما درى أن إدارة السجن ، إنما أخرجت المسجونين إلى الساحة ، ليشهدوا جلد بعض المحكوم عليهم ، وليشهدوا ماهو أفظع من ذلك : نبرر بأعينهم فتاتين يربطان إلى خشبة عالية فوق مصطبة من الحطب الجزل ، وليروا الجلاد يشعل الحطب ، فتذهب الفتاتان طعاماً للنار . . . شهد الملك السياط تهوى على الأجساد ، فلم يتمالك من أن يذرف الدمع . ثم





شهد النار تلتهم الأجساد الحية فحوّل مجهه وغطى عينيه بيديه ، وهو يناجى نفسه قائلا :

– ((إن هذا المنظر الفظيع سيظل مطبوعاً فى ذهنى ، ولن أنساه . . . ليتنى كنت فاقد البصر . . . أأكون ملكاً على بلاد تدين بالمسيحية ، ويجرى فيها مثل هذه الأعمال الوحشية ؟ ! . . .)) وعدّت المحكمة هندن محتالا ، فحكمت عليه بالجلد ، ونفذ فيه العقاب ، وجاء هيوز يشهد جسم أخيه تمزّقه السياط ، ويسيل منه الدم . ولم يَسَع الملك السكوت على هذا الظلم الفادح ، فأخذ يُسمع هيوز والحرّاس قارص الكلام ، فأمر هيوز أن يجلد هذا الفتى ست جلدات ، فتوسل هندن أن تضاف هذه الجلدات إلى عقابه رحمةً بالفتى ، فرضى هيوز فرحاً ، وانتحى الملك ناحية ووأرخى لعبراته العنان . . وقضت المحكمة أيضاً بأن يغادر هندن المقاطعه ، وبأن يُرَدّ إليه سيفه والحماران . . .

فلما أطلق سراحه وسراح الملك ، حار فى أمره ، ولم يدر ماذا يفعل ، ولا إلى أين يسير ، فهو إن سكت عن حقه ، سجلت عليه تهمة الاحتيال .

وما زال يقلب الأمر على وجهه ، حتى تذكر أن فى قصر الملك صديقاً قديماً لوالده ، فعزم على التوجه إليه ، واستنجاد مروءته وأريحيته ، فجدّ هو والفتى فى السير إلى لندن ، وبلغاها فى نحو الساعة العاشرة ليلا ، فرأيا المدينة شعلة من الأنوار ، ورأيا الزحام على أشده ، فعرفا أنه سيحتفل فى اليوم التالى بتتويج الملك ، وأن هذه مقدمات الأفراح ، فاختلف أثر هذه المظاهر فى نفسيهما ، وفعل الزحام فعله ، فسار كل منهما فى طريق . .



٢٠
توم فى إبان مجده

بينما كان الوارث الشرعى للعرش ، يطوف الأزقة فى ثيابه الرّثة ، وتتداوله أيدى المجرمين واللصوص ، وينزل ضيفاً على السجن ، ويعدّه الناس أبله فاقد العقل ، كان توم كانتى يتقلب فى المجد والعظمة ، فلم يعد ذلك الفتى الغرّ الخائف ، بل أصبح يستسيغ طعم الملك ، ويراه حلو المذاق ، فكان يأمر وينهى ، ويحلّ ويربط ، كأنه متمرّس بالملك منذ نعومة أظفاره ، وكان يحلو له ألآ يسير إلا فى موكب حافل ، وأن يدعو إليه الأميرة أليصابات والأميرة غراى ليأتنس بهما ، ثم يصرفهما بإشارة من يده، أن يستقبل السفراء ، ويقرأ رسائل الملوك إليه ، فيعتز إذ يدعونه فيها ((أخاهم)) .

على أن مجالى هذه العظمة والأبهة لم تنسه قلبه الطيب ، فنصر المظلوم، وأغاث الملهوف ، وألغى القوانين المجحفة ، وقاوم أكابر الدولة فى هذا السبيل فهابوه ، وعاتبته مرة أخته الكبرى الأميرة مارى ، على عفوه عن كثير من الناس كانوا يستحقون السجن أو الشنق أو الإحزاق ، فقال لها : إن ستين ألف سجين ، ضمتهم السجون فى عهد ((أبيه)) الملك ، وإن

اثنين وسبعين ألف لصّ وسارق ، هلكوا بيد الجلاد في ذلك العهد ((المبارك)) ، ثم أمرها بأن تلزم مخدعها وتصلى لله أن يجعلها تحسّ إحساس البشر .

ومن الظلم ألا تذكر ما كان يساور توم من القلق على الأمير ، ومن الشوق إلى أمه وشقيقتيه ، ولكنه ألف بعد ذلك حاله ، ولم يعد أحد من هؤلاء يخطر له ببال ؛ وفي منتصف الليلة التي سبقت يوم التتويج ، رقد توم في سريره فرحاً مبتهجاً ، واستسلم لأعذب الأحلام ؛ وكان إدورد تودور في الوقت نفسه ، يكاد يموت من الجوع والعطش والتعب ، واكن يجول في الطرقات أشعث أغبر من وعثاء السفر ، ممزّق الثياب من شدّة الزّحام وجذبه ، يتخبط في ذلك الخضمّ من الناس يموج حول كنيسة وستنمستر في ارتقاب يوم التتويج .

٢١



الموكب

أفاق توم فى صبيحة يوم التتويج على دوى المدافع فابتسم واغتبط .

وفى ضحوة النهار كان توم للمرة الثانية بطل موكب عظيم ، فقد كانت التقاليد تقضى بأن يسبق تتويج الملك طوافه بالمدينة ، فسار الأسطول بذلك الموكب أولا حتى وصل إلى القلعة ، ونزل الملك إلى البر تتبعه الحاشية، وامتطى صهوة جواد مطهَّم ألبس جُلاًّ فخماً مُرَقشاً يتدلى إلى الأرض ، ومشى وراء جواد الملك ، جواد آخر حسن الزينة ، قد استوى على مَتْنهِ رائد الملك الدوق سومرست — وهو اللورد هرتفولد ، وكان الملك قد رقّاه إلى رتبة الدوقية — وجاء بعدهما رجال الحاشية فى أجمل حلة وأبدع زينة ، واخترق الموكب شوارع المدينة وسط الهتاف التصفيق ومعالم الزينات ، وكان توم فى نشوة من الخيلاء والفخر ، ولاسيما ساعة لَمَحَ بين الجماهير بعض أصدقائه ، ممن كان يلعب معهم فى ساحة القاذورات ، وبينهم صديقان كان أيام لعبة ، قد عين الأول منهما أميراً للأسطول ، والثانى حاجبه الخاصّ فى مملكته الوهمية . ولكم ودّ لو استطاع أن يدعوهما إليه ، ويكشف لهما أمره ، إذن لاكتمل مجده وسروره ، فصبر

(١) الجل الدابة: كالثوب للإنسان تصان به.

(٢) مرقشا : منقوشا مزخرفا .

على مضض ، وأيقظه من أمانيه هتاف الجماهير :

((عاش الملك ! عاش الملك العادل ! عاش زين الشباب !)) فكان يردّ على هذا الهتاف والدعاء بقوله : ((عشت ياشعبى العزيز)) ثم يلقى بِدَرَ الذهب على الناس ، فيتزاحمون على التقاطها .

وتابع الموكب الملكى سيره ، واجتاز أقواس النصر ، تخفق فى رؤوسها وعلى جوانبها الأعلام ، وتتصدّر فى قمتها صورة الملك محاطةً بعبارات الولاء والإخلاص .

وعلى حين بغتة ، وقع نظر الملك على امرأة تطيل التحديق فيه ، فاصفرّ وجهه ، ورفع يده إلى عينيه كمن يصونهما من خطر داهم ؛ وكانت تلك المرأة أمه ، فصرخت صرخة شديدة لما رأته يستر عينيه بظهر كفه ، فاخترقت صفوف الزحام ، حتى اقتربت منه ، وانكبت على ركبتيه تقبلهما وتقول :

– ((ياولدى ! ياولدى العزيز !))

فهجم عليها أحد الحراس ، وانتزعها من جانب الملك بوحشية وغلظة ، وزاد الملك على هذا قوله :

– ((لست أعرفك يا امرأة !))

وأحسّ فى الحال بوخز الضمير ، وتمنى أن يرسل الله من ينقذه من هذا المجد الذى اغتصبه ، وأكمل السير مطرق الرأس لايرد على هتاف ، ولا يسمع إلا صوت ضميره يردّد على مسمعه تلك الجملة القاسية المخجلة

التى لفظتها شفتاه :

- ((لست أعرفك يا امرأة !))

وفترت حماسة الجمهور لما أعرض الملك عن الردّ على النداء والهتاف وراه يسير مطرق الرأس مفكراً ، فهال الدوق سومرست ، فأعمل المهماز فى شاكلة جواده ، ودنا من الملك قال :

- ((مولاى ! ليس الوقت وقت تفكير ، فاطرد هذا الغيوم من أفق ذهنك ، وعدْ إلى إشراقك وازدهارك . تعساً لهذه الشحاذة التى عكرت عليك صفاء مزاجك .)) فنظر الملك إلى الدوق بعينين حزينتين وقال :

- ((إنها أمى يادوق !)) فتقهقر الدوق بجواده وهو يتمتم مضطرباً أسفاً :

- ((لقد عاد الملك إلى الجنون !))



٢٢

التتويج

سارع الناس قبل ابثاق الفجر إلى كنيسة وستنمستر ، يحتلون المقاعد لتمكنوا من مشاهدة حفل التتويج ؛ وعندما طلعت الشمس ، أرسلت أشعتها إلى شبابيك الكنيسة ذات الزجاج الملوّن ، فانعكس منها ضؤ لطيف ساحر .

وما إن دقت الساعة السابعة ، حتى أقبلت نساء الأشراف ، يتقدم كل واحدة منهن شابٌّ فى ثياب زاهية من الحرير والمخمل ، ليدلها على موضعها ، فإذا جلستْ فيه ، رفع ذيل ثوابها الطويل ، ووضعه على ركبتيها . وجاء بعد ذلك كبراء الدولة ، وجلسوا فى الأمكنة المخصصة بهم ، وأمامهم – كلٌّ حسب رتبته – أكاليلهم التى سيلبسونها فى وقت معين من الاحتفال ؛ وبعد هنيهة وافى رجال الدين فى أكمل حلة ، واحتلوا مقاعدهم فى المنصّة القائمة فى صدر الكنيسة ، وتبعهم رهط من الحرس الملكى ، فى سيابهم الرسمية المزركشة وحفُّوا بالإيوان .

وعلى حين بغتة وقف الجلوس ، وانحبست الأنفاس ، واشرأبت الأعناق إلى توم كانتى ، إذ يدخل الكنيسة فى خيلاء وعظمة ، ويمشى

إلى العرش المنصوب فى وسط المنصّة ، وقد ارتدى معطفاً مّهباً ختمت أطرافه بالفرو والثمين .

استوى توم كانتى على عرشه ، وبدأ الاحتفال على نغمات الأرغن ، توقع عليه التراتيل التى ترفع النفس إلى خالقها ؛ وكلما مضى الاحتفال إلى غايته ، كان توم كانتى يزداد اضطراباً ، ويزداد فيه وخز الضمير ، حتى تقدم منه رئيس أساقفة كنتر برى ، ممسكاً بيديه تاج إنجلترا ، فرفعه فوق رأس توم . وفى الحال حذا الأشراف حذوه ، ورفعوا أكاليلهم عالية فوق رؤوسهم ؛ مستعدين لأن يلبسوها فى اللحظة التى سيضع رئيس الأساقفة فيها التاج على رأس الملك .

وفى هذه اللحظة من الصمت الرهيب ، رأى الناس فتى عارى الرأس ، ممزّق الثياب ، غليظ الحذاء ، يدنو مسرعاً من المنصّة ؛ ويمدّ يده ألى رئيس الأساقفة ، ويقول له بلهجة خطيرة ، تختلف كل الاختلاف عن مظهره : - ((إنى أمنعك أن تضع تاج إنجلترا على رأس هذا الدّجال . أنا هو الملك !))

وامتدّت الأيدى من كل جانب ، إلى ذلك الفتى الجرئ لتمزقه شرّ تمزيق ؛ ولكن توم كانتى نزل من العرش ، وتقدم إليه وصاح بصوت واضح رنان : - ((كفوا أيديكم ، ولا تصيبوه بمكروه ، إنه الملك !))

فبدت الحيرة فى الوجوه ، وتبادل الناس النظرات فى قلق واضطراب ، غير أن الملك سرعان ماتملك رباطة جأشه ، فقال لمن حوله :

- ((اطمئنوا بالاً ياسادة ، فكلكم يعلم مرض الملك ، فلا تعيروا هذا الحادث بالا . . . ليقبض على هذا المتشرّد !))

وكاد الحرس يسرعون فى تنفيذ الأمر ، لولا أن الملك المزيّف ضرب الأرض بقدمه وصاح :

- ((حذار أن تمسوه بأذى ، إنه الملك !))

فتوقفت الأيدى ، وكأنما أصاب الجمع شَلَلٌ لايستطيعون معه حراكاً . وبينما كان الناس فى حيرة بالغة ، تقدّم ذلك الفتى المجهول ، عالى الرأس ، وقور الخطى ، واعتلى المنصة ، فركع توم كانتى أمامه قائلا :

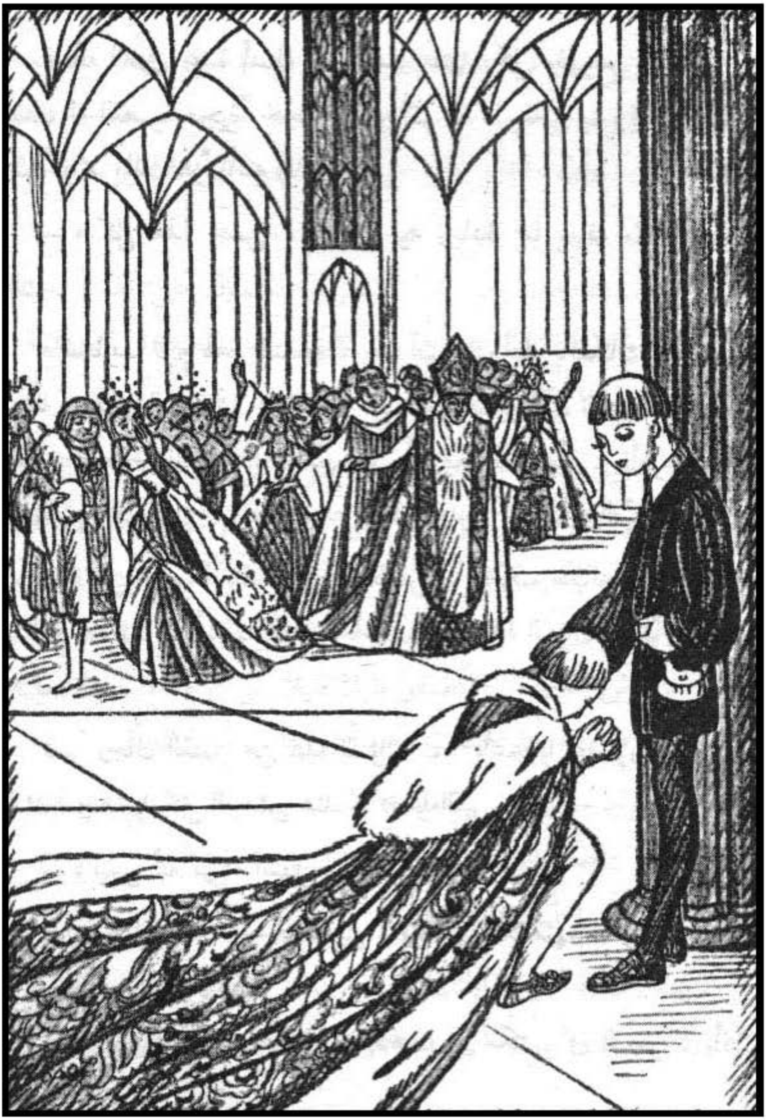
- ((عفوك يامولاى وسيدى ! دعنى أعرب لك قبل جميع رعاياك عن ولائى وإخلاصى . . . تقدّم يامولاى والبس تاجك واستردّ ملكك .))

واستولى على الحضور دهشة عظيمة ، لما رأوه من التشابه الغريب بين الفتيين ، ففكر رائد الملك قليلا ثم التفت إلى توم كانتى وقال :

- ((اسمح لى يامولاى أن أطرح بعض الأسئلة . . .))

فقال الفتى المجهول :

- ((سأجيبك عنها ياميلورد .))



فسأله الدوق عدة أسئلة ، أجاب عنها بكل وضوح ، حتى إنه وصف له القصر حجرةً حجرةً ، وذكر له ما يتعلق به وبالأميرات ، ولكنّ رائد الملك هزّ رأسه وقال :

- ((كل هذا حسن ، وليس فيه زيادة عما يعرفه مولانا وسيدنا الملك .))

فاضطرب توم لهذه النتيجة ، بعد أن كان أمله بالفكاك يكبر شيئاً فشيئاً ؛ وفكر الدوق فى أن مسألةً مثل هذه جديرة بأن تقسم الشعب على نفسه ، وتطيح بالعرش ، فصمم على أن يكون حازماً ، فأمر بالقبض على الفتى المجهول ، ثم خطر بباله خاطرٌ جديدٌ ، فسأل الفتى المجهول :

- ((أين خاتم الدولة الكبير ؟ فليس من يعرف مكانه غير من كان إلى أيام قلائل ولياًّ للعهد . . . أجب عن هذا السؤال ، فى الإجابة عنه نجاتك .))

فسرّ رجال القصر من هذا السؤال ، وأعجبوا بحضور ذهن رائد الملك ، ودهشوا كل الدهش عندما سمعوا الفتى يقول :

((ليس ثمة شئ أسهل من هذا .))

ورأوه يجيل النظر فى الحاضرين ، ويعين رجلا منهم ، ويقول بلهجة من تعوّد إصدار الأوامر :

- ((يالورد سان جون . . . إذهب إلى مكتبى فى القصر ، وأنت

أعرَفُ به من غيرك ، فستجد إلى شمال باب الدخول زراً ، فاضغط عليه تنفتح أمامك خزانة سرّية ، لايعرف لغزها غيرى وغير العامل الذى أمرته بصنعها ، وأول ماتقع عليه عينك فيها هو الخاتم الكبير ، فاحمله وائتنى به .))

وكاد اللورد جون يطير إلى القصر ، فاستدرك على نفسه إهماله التقاليد الملكية ، فاستشار بعينيه توم كانتى ، فقال له هذا فى حماسة :

– ((أتتردد ياميلورد ؟ ألم تسمع أمر الملك ؟ اذهب !))

فحيا تحيا وجهها إلى الملكين الحقيقى والمزيّف ، واستدار على عقبه ، وجرى مسرعاً لايلوى على شئ . وكان الصمت رهيباً قاتلا فى أثناء غيابه ، يضرب كلٌّ فيه أخماس بأسداس ، وخيل إلى بعض المتملقين المداهنين ، من رجال الدولة والقصر ، أن كفة الفتى المطالب بالعرش سترجح ، فانصرفوا قليلا قليلا عن توم ، وحفوا بشبيهه ، حتى وجد توم نفسه بعد لحظات وحيداً فى جانب من المنصّة .

وعاد اللورد سان جون ، فتعلقت الأنظار بشفتيه ، واختلجت الأفئدة، فمشى هو إلى منصّة الملك ، وانحنى وخاطب توم قائلا :

– ((مولاى لم أجد الخاتم الكبير .))

فعلت صفرة الموت أولئك الذين كانوا انفصلوا من حول توم ، فاقتربوا منه رويداً رويداً ، وأحاطوا به إحاطة السوار بالمعصم ، وبقى

الفتى إدورد الحقيقى وحده فى مكانه ، وكان رائد الملك قد تملكه الغضب فلم يستطع صبراً فصاح فى الحرس :

– ((اطردوا هذا الدجال من هنا . اجلدوه وطوفوا به علانيةً فى المدينة ، لكى يكون عبرة لمن اعتبر .))

فصاح توم فى الحرس قائلا :

– ((مكانكم ، من يمسه يعرّض نفسه للموت !))

فحار رائد الملك فى أمره ، وسأل اللورد سان جون :

– ((هل فتشت جيداً ؟ ولكن فيم الإطالة ؟ إن الحوادث التى تجرى هنا تعدذ من أغرب الأمور . . . لاعجب أن تفقد أشياء صغيرة . . . أما أن يفقد خاتم الدولة الكبير ، وهو من الذهب الكثيف . . .))

فقاطع توم الدوق وصاح :

– ((هل هو مستدير ضخم ؟ وعليه نقوش وكتابة ؟ ولمَ لمْ تقل لى إن هذا هو ما تسمونه خاتم الدولة ؟ إنى أعرف مكانه ، ولستَ أنا الذى وضعته فيه ، وإنما هو ملك إنجلترا الحقيقى . .)) ثم التفت إلى إدورد السادس وقال :

– ((مولاى فتش فى ذاكرتك لعلك تذكر أين وضعته . . . سأعينك على التذكار : هل نسيت ذلك اليوم الذى أنقذتنى فيه من قوة حارس القصر ، ودعوتنى فيه إلى مكتبك ، وطلبت لى الطعام ، وصرفت جميع الخدم حتى لا أخجل من وجودهم ؟ وهل تذكر كيف تبادلنا ثيابنا ،

وكيف نظر كل منا إلى المرآة فرحاً بحاله ؟ ولما رأيت كفى داميةً من ضربة الحارس ، انطلقت إليه لكى تؤدّبه ، وقبل خروجك تناولت الخاتم من المنضدة ووضعته . . .))

فصاح إدورد السادس :

– ((حسبك لقد تذكرت . . . اذهب يالورد سان جون إلى القصر ، وعدْ بخاتم الدولة إنك تجده فى جيب من جيوب الدرع الإيطالية المعلقة فى مكتبى .))

فانطلق اللورد سان جون مسرعاً وعاد بعد قليل ، وتقدم من المنصّة يحمل فى يده خاتم الدولة الكبير ، فاهتزت جوانب الكنيسة بدوىّ صوت واحد ، لم يحفل بقداسة المكان ، وهو يقول :

– ((عاش الملك الحقيقى !))

ولما هدأت عاصفة الهتاف قال توم كانتى :

– ((خذ يامولاى معطف التتويج ، وأرجع إلى خادمك المطيع توم كانتى أسماله .))

فصاح رائد الملك مغيظاً محنقاً – ((انتزعوا المعطف من هذا الدجال ، واحملوا هذا الأفاك إلى السجن . . .))

غير أن الملك الحقيقى وقفه وقال :

– ((ماهذه إرادتى يادوق ، فلولاه ما استرددت عرشى ثم أراك – ياخالى العزيز – قد كفرت بنعمة هذا الفتى عليك ، فأنت مدين له برتبة الدوقية ، فإن شاء أبقيتُ لك الرتبة ، وإن شاء خلعتها عنك .))

فاحمرّ وجه الدوق خجلاً . . .

واستتب الهدوء في الكنيسة ، واستأنف رجال الدين صلاة التتويج ، وأليس الملك التاج ، ودوّت مدافع القلعة تحمل إلى الناس البشرى ، ويختلط دويها بهتاف الشعب وهو يصيح :

– ((عاش مليكنا المحبوب إدورد السادس .))



٢٣
الملك يعمل

قلق مايلز هندن على فتاه وخشِىَ أن يجرّ عليه جنونه عواقب وخيمة ، فضاعت الهمة فى البحث عنه ، فلم يعثر له على أثر ، وقضى الليل كله ، وقضى كذلك اليوم الثانى ، يبحث ويفتش عنه ، ولكن دون جدوى .

ولما سمع طلقات المدافع مؤذنة بتتويج الملك ، فكر فى صاحبه ، فزاد إليه شوقاً وعليه قلقاً ، وبدأ الجوع يقترص بأنيابه جوف هندن ، فالدريهمات القليلة التى كانت معه ، سُرقت منه وسط الزحام ، فعوّل أن يذهب فى اليوم التالى إلى قصر الملك ، ليقابل صديق والده ، ويطلب منه معونته . فبكر إليه ، وشرع يطوف حول القصر ، وهو خَجِلٌ مما عليه من ثياب رثة ، وبينما هو سابح فى أفكاره وهمومه ، إذا بضابط من ضباط القصر ، على رأس كوكبة من الحرس ، يلقى القبض عليه ، فقد رأوه يحوم حول القصر ، فرابتهم منه حاله ، وحاول هندن أن يقفهم على جلية أمره ، فأعاروه أذناً صماء ، وفتشه الضابط ، وعثر فى جيبه على الورقة التى كان كتبها فتاه (المخبول) يوم قابله أخوه هيوز ، تلك المقابلة العنيفة ، فقرأها الضابط ، فاضطرب هندن ، واضطرب الضابط

معه ، وهو يقول :

- ((هو ذا مطالبٌ جديد بالعرش ، وما أكثرهم فى هذه الأيام !))

ووجه كلامه إلى الحرس قائلا :

- ((شدّدوا عليه الحراسة ، حتى أقابل مولانا وأطلعه على هذه الورقة وأعود بكم .))

فأيقن هندن بالهلاك ، وما كان أشد دهشته عندما رجع الضابط وأعاد إليه سيفه ، وانحنى يقول له باحترام :

- ((هل يتفضل سيدى فيتبعنى ؟))

وكان هندن يودّ لو ينقض عليه ويؤدبه على هذه السخرية البطنة بالاحترام ، ولكنه كظم غيظه وتبعه ، فسار به من رواق إلى رواق ، ومن حجرة إلى حجرة ، والناس ينظرون إلى هندن نظرات التهكم والازدراء بمظهره الرثيث ، حتى وصل إلى مكتب أمناء الملك ، وكان يعجّ بالوافدين الذين يترقبون التشرف بمقابلة الملك ، فتسلم كبير الأمناء هندن من الضابط، ودخل به قاعة فسيحة ملأى بالأشراف والنبلاء ، وفى صدرها منصّة عالية ، جلس عليها الملك ، وأمامه رجل من حاشيته يتلقى منه الأوامر ، فانزوى هندن وقائده فى ركن من الأركان ، ولم يتبين هندن وجه الملك فقد شغل بهؤلاء القوم الذين ينظرون إليه شزراً ، فقابل ازدراءهم بازدراء ، حتى وقع نظرة على الملك ، فكاد يصعق فى مكانه ، ولكنه تملك نفسه فى الحال ، وهو يفكر :



– ((يالإلهى ، ملك الأحلام والأشباح جالس على العرش ، ولكن لا ، فما هؤلاء أشباح ، ولا أنا فى حلم . . أترى هذا ملك إنجلترا ! أم ذلك الفتى الشريد الذى عرفته ! . . . يالإلهى من يحلّ لى هذا اللغز ؟)) ودار فى خاطره رأىٌ فيه شذوذ وفيه جرأة فمشى إلى مقعد من المقاعد وحمله إلى وسط القاعة ، وجلس عليه ، وصاح فيه صوت يقول :

– ((انهض أيها القذر ، أتجلس فى حضرة المليك ؟ !))

وكانت الضجة قد لفتت نظر الملك فرفع يده وقال :

– ((دعوه فهذا حقه .))

فتراجع الأشراف مدهوشين ، واستأنف الملك حديثه وقال :

((اعلموا جميعاً ياسادة ، أن شجاعة هذا الرجل ، وسيفه الطويل ، قد أنقذا الملك من الخطر ، ومن الموت ؛ واعلموا كذلك أنه أدّى لمليكه خدمة أجلّ : لقد أنقذه من العار ومن الجلد ، بأن تحمله عنه ، لذلك خلعنا عليه رتبة اللوردية ، فضلا عن الامتياز الذى خصصناه به ، وبخلفائه من بعده جيلا بعد جيل ، وهو أن يجلسوا فى حضرة مليك إنجلترا ، ما دام عرش إنجلترا قائماً ، فلا تنازعوه هذا الحق)) .

ودخل القاعة هذه اللحظة السير هيوز وزوجته اللادى أديث ، جاءا يقدّمان فروض الطاعة والتهانئ للملك ، فلم ينتبه هندن لدخولهم، لأنه كان كالذاهل المأخوذ ، فثاب إليه رشده ، ونهض وخرّ ساجداً

أمام الملك يشكره ، ويعرب له عن ولائه وإخلاصه ؛ ولمح الملك السير هيوز فصاح ، والشرر يتطاير من عينيه :

– ((اقبضوا على هذا اللص ، هذا المزوّر ، وليجرد من رتبته وأملاكه التى اغتصبها ، وليزجّ به فى السجن ، حتى أقضى فى شأنه أمراً .))

وما كاد الملك يتم حديثه ، حتى دخل توم كانتى مرتدياً لباساً فخماً غريباً ، ففسح الأشراف له فى الطريق ، فتقدم من منصةّ الملك وركع ، فقال له هذا :

– ((لقد وقفتُ على ماجرى فى هذه الأسابيع الخيرة ، فسررت منك كل سرور . لقد ملكتَ بالحكم والرأفة . هل لقيت أمك وشقيقتيك ؟ حسن ! إنى سأعنى بشؤونهن . أما أبوك فسيشنق بحكم القانون إلا إذا التمست العفو عنه .))

وتوجه الملك بالحديث إلى الحاضرين فقال :

– ((اعلموا جميعاً أن كنيسة رهبان المدارس ، التى تحوّلت بأمر أبى ملجأ للقطاء ، لن توفّر للداخلين فيها غذاء الجسد فقط ، بل غذاء العقا والروح أيضاً ؛ وهذا الفتى الذى ترونه أمامكم سيسكن فيها ، ويكون له المقام الآول بين نظارها ما دام حياذً . وبما أنه كان ملكاً، فيجب أن يحاط برعاية خاصة من التكريم والإجلال ، فانظروا إلى ملبسه، فليس لأحد أن يقلده فيه ، وحيثما مرّ فسيذكر الناس أن صاحبه

كان ملكاً ، فعليكم أن تحيوه وتخصّوه بالتجلة والاحترام ، فهو فى حمى العرش ، وسيعرف بهذا اللقب الشريف : " ربيب الملك " .))

فنهض توم مؤتلق الوجه سعادةً وخيلاء ، وقبّل يد الملك ، وقد عقد الشكر لسانه ، ومضى مسرعاً إلى أمه وشقيقتيه ، يحمل إلليهن البشرى ، ليقاسمنه مجده وأفراحه ، وليعيش معهن أمد العمر.



٢٤

الخاتمة

ثبت من التحقيق فى قضية هيوز هندن ، ومن اعترافه ، أن اللادى أديث لم تنكر مايلز هندن إلا نزولا عند أمر زوجها وتهديده ، فقد قاومته أولا مقاومة عنيفة ، فهدّدها بالقتل إن هى لم تذعن لطلبه ، فلم تحفل بوعيده قائلة له إان الحياة لا تهمها ، فتوعّدها بقتل مايلز ، وكانت اللادى أديث تعرف ما انطوت نفس زوجها عليه من خبث وشرّ ، وعلمت أنه منفذ وعيده لا محلة ، فأجابته إلى ماطلب ونفسها حزينه أشد الحزن .

وبلغ من نبل اللادى أديث ومايلز أنهما لم يشهدا عليه ، فأطلق سراحه ، ولكنه خشى انتقام الناس منه ، فرحل عن البلاد ، ومات بعد مدة قليلة فى غربته ، فورث أخوه مايلز أملاكه ، وتزوج اللادى أديث ، وعاشا فى هناءة وسرور .

أما والد توم كانتى فلم يعرف ماذا جرى له ولا أين مقره .

وعنى الملك بأمر المظلومين الذين عرفهم فى أيام البؤس ، فأغدق عليهم النعم ، وأصلح حالهم ، وكان يسرّه أن يقص على سامعيه تلك

الحوادث الغريبة ، التى حدثت له من اليوم الذى رماه الحارس خارج القصر ، إلى الليلة الأخيرة التى اختلط فيها بفريق من الفَعَلة ، ودخل كنيسة وستمنستر ، واختبأ فيها حتى الصباح ؛ وكان يقول لسامعيه إن تلك الحوادث أفادته كثيراً ، وعلمته كيف يوفر لشعبه حياة عادلة هنيئة .

وبقى مايلز هندن ، وتوم كانتى ، مقرّبين إلى الملك طيلة عهده القصير، فلما مات وهو فى رونق الشباب بكياه بدموع سخينة ، وحزنا عليه أشد الحزن حتى النَّفس الأخير من حياتيهما . . . لم يملك إدورد السادس – ويااللأسف – إلا سنوات قليلة ، فقد مات فى السادسة عشرة من عمره مبكياًّ على شبابه وعدله ورحمته . وكثيراً ما حذّره كبار رجال الدولة من الخطر الذى ينجم عن استعماله الرأفة ، وعن سن قوانين مخففة ، فكان يجيبهم وعيناه تفيضان بالرحمة :

– ((ماذا تعرفون أنتم من العذاب والاضطهاد ؟ أنا وشعبى نعرفهما حق المعرفة .))

بمثل هذه العواطف النبيلة ملكَ إدورد السادس فى عصر تميَّز بالقوة واللؤم ، فترك فى سمع الزمان وقلبه أثراً طيباً ، يُضفى على ذكراه عواطف التقديس والإجلال .



رقم الإيداع	٢٠٠٥/٢١٨٠٩
الترقيم الدولى	ISBN 977-02-6877-1

٧/٢٠٠٥/٥١

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)

أولادنا

مجموعة طريفة يختص كل كتاب منها بقصة واحدة تفيض بالمغامرات والحوادث العجيبة المملوءة بآيات البطولة والشجاعة والإقدام .

صدر منها :

١ - عمرون شاه .
٢ - مملكة السحر .
٣ - كريم الدين البغدادى .
٤ - آلة الزمن .
٥ - الأمير والفقير .
٦ - كتاب الأدغال .
٧ - بينوكيو .
٨ - نبوءة المنجم .
٩ - روبن هود .
١٠ - دون كيشوت .
١١ - ايفنهو .
١٢ - جزيرة الكنز .
١٣ - كنوز الملك سليمان .
١٤ - سجين زندا .
١٥ - الزنبقة السوداء .
١٦ - مون فليت .
١٧ - مقبرة الأفيال .
١٨ - الربان بلود .
١٩ - تيودورا .
٢٠ - أوليفر تويست .
٢١ - دافيد كوبر فيلد .
٢٢ - فى مهب الريح .
٢٣ - الفخ الذهبى .
٢٤ - حصان طروادة .
٢٥ - عودة المحارب .
٢٦ - نساء صغيرات .
٢٧ - توم سوير .
٢٨ - الأربعة الذين سرقوا الزمن .
٢٩ - الربان الجرىء .
٣٠ - العم نعناع .
٣١ - أم حنان .
٣٢ - كوخ العم توم .
٣٣ - سميراميس .
٣٤ - بامبى .
٣٥ - صديقى فوق الشجرة .
٣٦ - الطفلة المدللة .
٣٧ - الأرض الغامضة .
٣٨ - مولد بطل .
٣٩ - رحلة فى عالم مجهول .
٤٠ - سندريلا تعود .
٤١ - غدًا .. سأغنى مرة أخرى .
٤٢ - جليلة وحسان اليمانى .
٤٣ - معروف فى بلاد الفلوس .
٤٤ - عميل فى المصيدة .
٤٥ - منيرة وقطتها شمسة .

دار المعارف